هذا انحطام الأبحار

سعيد

عبيد

زياد

روايتي

سمير عبد الباقي

هكذا تكلمت الأحجار

روايـــة

الليلة التى سبقت وصول الجلاد

كان يحاول جاهدا اقناع نفسه ، أن كل ما مر به حدث فى عصر آخر • لكن عقله كان عاجزا عن اختراق ركام الذكريات والسنين • فتشبث بوهم بارق من تلك الأيام الخوالى التى لن تعود ، يوم كانت الأشجار تتقن لغة الأطفال ، وكانت الحقول تمنح الأمان للطير •

ذات صباح قديم ، سمع (قبرة) تحض قلب طفل صغير على التمرد :

لا تصدق كل ما تراه عيونك ، أنت تتصور أن الحاضر باق الى الأبد ، السماء لا تلمس الأفق يا بنى ولا تحط فوق الأسوار العالية فى أى مكان ، السماء أبعد من أن تنالها قبضتك الواهنة ، صدقنى فنحن نرحل عبر مسافات لا نهائية • ونعرف أن

العالم أكثر رحابة من قريتك ، وأكثر عمقا من أفق الحقول الخضراء التى لا تعرف سواها .. العالم أحلى بكثير من الخرابة المغمورة بضوء القمر ، وأرحب من حوش (القواسم) المزدحم بالأطفال المرضى .

.....

اهتز ايمان الفتى بقدرة أشجار التوت . وابتدأ بقلب منشق يتأمل ما حوله من عجز . لكنه استجمع قواه فى المساء وقال لأبيه العجوز الذى كان مشغولا باطعام بقرته الوحيدة الهزيلة وهو يصارع آهة ألم غير منظورة :

لم أعد أطيق كل هذا القدر من الدناءة ، لم أخلق لحرث الأرض وشق المراوى . ما فائدة أن يزيد عدد التعساء واحدا . سوف أرحل ذات يوم ، سأرحل بالتأكيد .

.....

ومضى يحلم فى الليل بالسفر الطويل ، ويبشر الآخرين فى النهار بالابعاد والمسافات .

وفى المقاهى الضيقة الدافئة ذات المقاعد الحجرية ،

أخذ يحدث الرجـال عن البلدان البعيـدة والمدن البيضـاء .. ويغنى لهم أشـعارا عن طرق الفجر المضيئة التى تسر عبر زنازين السلاطين والملوك . ويفسر أحلاما غامضـة عن أزمان لم تأت أبدا منذ ظهر الانسان على الصخر النارى ، ولكنها ما زالت تبدو أقرب من حبل الوريد .

ولكنهم كانوا غارقين طوال الوقت فى ظـلام لزج من ليل القرية الكافر الذى لا يرحم ولا يحرر أحدا من هموم التفكير فى اليوم المضنى القادم .. ومعاناة الخوف من المجهول ــ فغرق معهم فى سحب الدخان الرخيص وأحضان النساء الجرداء ..

.....

لكنه ظل يتسلل الى الترعة ويتقافز على جسور القنوات الراكدة المـاء ، فى الليالى السوداء وفى الليالى القمرية ويحدث الصبايا الفقيرات ويمنيهم ــ بعد أن يملأ كفوفهم المعروقة بحبات الفول السودانى والعطر الرخيص ــ عن القنـاديل الزرقاء ، التى تسرجهـا الفتيات العاشقات فى القرى الجبليـة لعشاقهن الخارجين على القانون ، وهو يعلمهن الكلمات الغامضـة ذات الجرس الأخضر ، والتى لها طعم القرفة ورائحة التمر هندى

وصوت فيروز ــ تلك التى لم يرجع بسواها من رحلاته السبع فى البحار المجهولة المليئة بالمخاطر والمهالك .

.....

وفوق كتفيه الناحلتين الهزيلتين ، حمل أطفال القريــة الصغار ، وعلى قدميه الحافيتين مضى معهم يمشى خلف القوافل فى الدروب المجهولة ، معتليــا ظهور المراكب ذات الأربعــين شراعا ، أو ممتطيا الأفيال الضخمة فى الجزر والوديان البعيدة ، أو متعلقا بأطراف أجنحة الرخ الاسطورية ، ليشاهــدوا معه ، ولو لوهلة خاطفة ــ تلك المدن والجبال التى يغمرها ثلج كالقطن وتملأها ضحكة الأطفال التى لم يعد يسمعها حتى فى الحلم .

.....

أيامها كان الجميــع أصدقاء له ، ينتظرون قدومــه مع المساء ، كل ليلة فى شوق ولهفة . ورغم كل شىء كان يحبهم جميعا : أطفال الطريق المترب الصــاعد حتى شاطىء البحر القديم ، فتيات الجرن العاريات الأقدام ، ظل قبة (سيدى مجاهد) الرطب ، ضفادع المصــارف الخضراء والسوداء ومياه السبيل العطنة الباردة ، وحتى ، روث المــاعز النفاذ ورائحة الجميز

(الباط) ؛ وعيون البنت (مديحة النسر) ذات الأنف والخدود المليئة بالنمش اللذيذ •

كانوا جميعا يصدقون كلامه ، ويؤمنون به ايمانهم بأسرار الشيخ (أبو الرايات) ومعجزات (أحمد زنوبة) الباتعة ، التى لا يجرؤ أحد على الشك فى تحققها وحدوثها على طول الزمان •• ورغم ذلك لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة ، أو نصف خطوة ، فى اتجاه تحقيق معجزاته الشخصية وأحلامه البسيطة • فالأبواب المغلقة لم تكن قد سمحت بعد بامكانية التجاوز • ولم يكن هو قد أدرك بعد سر قوة الكلمات التى تملك طاقة الحركة والولوج ــ لقد كان صغير السن الى درجة لا تصدق ، وكان قليل الخبرة بأساليب الجدل والمزايدة وتجميل الذات •

كان أيامها يملك قدرة واحدة ، هى أن يستطيع حين يريد أن ينادى عليهم ؛ وأيامها كانوا يهرولون نحوه من كل قرية ونجع ، فيقودهم صغارا لغزو جنينة (أبو حسن) للحصول على الفاكهة التى لم تنضج بعد • أو يدفعهم صبيانا ، لعبور البحر الصغير الى التلول لاصطياد طائر (أبو الخضير) ، أو يحرضهم رجالا على اسقاط العمدة وتغيير مجلس ادارة الجمعية •

وعندما كان الليل يسقط فوق القرية فجأة ، كسلاق جبار له ألف وجـه (غول) مخيف وألف ذراع (عون) قـادرة ومتعسفة ، لم يكن يجد أمانا . الا بالنظر فى عيون أصـدقائه الضاحكة الذابلة ، والتى كانت أيامها أكثر من أن يحصيها ساعة تحيط به ، خلال أزمته • أو عندما يستلقى مستسلما وحده ـ فوق قش الأجران الندى ، فى ليالى أكتوبر الباردة أو فوق رمال المنفى الحارقة الشوك •

بذل جهدا خارقا فى جمع أشلائه المبعثرة فوق كثبان (المحاريق) الرملية ، ليجد القدرة بعدها ، فيزحف باختياره الحر الى حيث لا سماء ولا نجوم يمكن أن تزوره • بعدها ندم ندما حارقا على تسرعه ، لانه استسلم لهم بسرعة ، وبلا مقاومة • وأضناه شعوره بالوحدة ، وعذبه الاحسـاس بالانتهاك حتى غلبـه النوم تاركا نجمتـه الصـديقة تغيب عن المربـع الحديدى المنتظم الاضلاع ، وتتلاشى فى الابعـاد اللانهائية • منذ زمان بعيد •• بعيد تعود أن يراها تسبح كل ليلة فى نفس المكان وفى نفس الموعد . عارية كجنية الحواديت • وكان يسعده أن يفـكر فيها وأن يمد لها ذراعه محاولا أن يلمسها فى الظلمة

وعندما كان يخيل اليه أنه أفلح فى احتوائها ، كان يحس حنان الجسد البشرى الغض يزلزل جذور الجدران العتيقة ، صاعدا به رغم الأسوار الى حيث يسمع نبض الأجنة ويذوب فى دفء الارحام •

يوم دعاهـا الى منزله أول مرة ، لم تجد غضاضـة فى الاستجابة لندائه دون تردد ، هبطت من سمائها الى أرضـه المتربة ، ومضت معه عبر الباب الضيق والشـوارع المفزعة فى غفلة من الحراس لتنام على صـدره فوق السرير الفقير الذى كان يحملهما الى أركان الدنيـا المسحورة • وفجأة ــ فى كل مرة وقبل أن تكمل الأحرف المهشمة شكل الكلمة العاشقة كانت عربة شرطة مجهولة الوجهـة مشروخة الصوت تمزق محدثة زلزلة وضجة ، مزقة حلمهما المشترك ، لتلقى به فى مهـاوى الشك والتردد ، يحاصره رعب الأم وصراخ الأطفال فى الأمكنة البعيدة • بعدها يسمع صوت الأقدام الغجرية والأحذية الثقيلة وهى تتكاثر وتتزاحم صاعدة اليه السلم الحديدى لتداهمهما فى جنون • فيسرع مخفيا وجه حياته المشـوه تحت الغطـاء (الميرى) الممزق ــ وينتحب ••

••••••••

قذفت به أمواج الذكريات الكئيبة الى الظل الرطب••

فمد أصابعه تتخلل فى رفق حبات الرمـال الباردة ، تذكر أنها هجرته بارادتها الكاملة ، ومضـت خلف حلمها القـديم بالثوب الأبيض والتراتيل المقدسـة والزغاريد ، ولكن الرحلة الى الجبل ، لم تكن على هذه الدرجة من الأمان ، فلم تكن أشجار الأرز أليفة كأشجار الجميز • وارتعش النيل منكفئا من الرعب الى المستنقعـات الاستوائيـة •• فهوت كصـخرة خرسـاء ، لتحترق فى حمام البيت الآيل للسـقوط ، وسط بخار المـاء الساخن والصابون الرخيص ، وهى تنادى عليه • هاجمت أنفه روائح قديمـة مألوفـة ، فانشق صدره وامتلات عيناه بدموع جلفة ••

ودار بعينه المختنقة بغمامة الذكريات المطيرة ، أشجار الخروع وشجيرات الساسبان • وتابع ظـلال رفاقة ذوى الأيدى المرفوعة فوق الرأس ، فى الطابور الطويل • وتأمل النخيـل التزمى المتناثر منفيـا فى الصحراء البليدة فتـذكر نخلة عمـه (الحيانيـة) العملاقة • وتجسدت أمام عينيه ابنة عمه الفـائرة ذات الشعر الخشن والعين الحولاء••وحاصرته نظرتها الشبقـة ، وهى تختطفـه الى (مدود) العنزة ،

لتدفن رأسه الصغير فى صدرها المتحجر البرى الغارق فى العرق النفـاذ .. فلا يجد مفرا من الاستسلام المشـوب بحب الاستطلاع واللذة ، وهو لا يفهم تماما سر لهاثها الباكى .. وآهاتها المتألمـة ودقات قلبها المتوترة ، فيظل قلقا حتى تهدأ . لكنه يزداد شكا ، لانها لم ترض تماما ، فيراها تبعده بجفـاء على طول ذراعها ، تاركة اياه أسـير شـعور قاتل بالخجل ، لا يتناسب مع سنوات عمره القليلة ، فتعود اليه غافرة مداعبة شعره القصير بلا حياء . وتصفح عنه آمرة أن يساعـدها فى سـقى البهـائم ونقـل السـباخ ..

.....

يصعد مرة أخرى مكررا محاولته .. الدائبة للولوج من النافذة الوحيدة ذات القضبان السميكة الصدئة المتقاطعة . يسقط ويعـاود التسـلق ، ولكن الجـدار كان عاليا لدرجـة لا تصدق ، وأدمت الحجارة أظافره ، وخذله الجوع .. فارتمى ضعيفـا عاجزا ، وتكوم تحت الغطـاء مخفيا وجهـه بكفيـه النحيلتين ، محاولا دفن هزيمته ونظراته المرتعبة فى أحشاء الفراغ المظـلم الضيق المحصـور بين ساقيـه المنثنيتين والبطانيـة .

ارتعشت أجفانه المبللة ثم هدأت متعبة ، فحلم بالشطآن التى يغسلها الموج الأزرق حيث تتناول الأسماك طعامها فى هدوء الفلاسفة ـ ولكن ما أن تبينت عيونه أطراف النخيل الاستوائى ، وما كادت همسات أمواج المحيط تطرق سمعه من بعيد حتى غرق فى نوم عميق ، سكرانا برائحة القواقع والأعشاب الجافة ، والجبز الباذ ، والزيت المتدوح فى الطاسات السوداء الفقيرة ، مستنشقا دموع البنت (نجاة) حينما اعترف لها بحبه فصدقته باكية ، وارتست يائسة فوق صدره ، محتمية من جنون أبيها وقسوة أمها ، فأنعشته طراوة ضفيرتها الوحيدة وأيقظت حسه حرارة خدها ، فأقسم لنفسه أن يتزوجها بمجرد عودته رغم سخرية أخته الكبيرة .. التى وقفت فى الركن تؤنبه بشدة ، لأنه يزرع آمالا فى حقول مجدبة يعذبها الشوق للمطر ، فحاول أن يجادلها مثبتا قدرته على رعاية بذوره ، لكنها ثبتت عيونها فى عينه فأغمض معترفا بقلة حيلته ، وهو يتذكر

يوم هبط الى الأرض فى زمان بعيد ، متسلقا أشعة
القمر الفضى هاربا من مؤامرات الجوارى الروميات
الى عزبة الغجر ذات الحوارى الضيقة ، مداعبا
بناتها الفقيرات المشققات الكعب .. مقبلا وجناتهن
المبقعة خلف وابور الطحين ، أو فى ظل نخلات
ياسين السبع ، أو خلف كرسى الوزير ، وربما تحت

سلالم قصر الوالى نفسه ؛ لعب معهن لعبة العروسة والعريس وفى الزرائب وفوق السطوح ورغم صراخ (عيوشة المهبوشة) الذى لا ينقطع ، أو فى الجرن الخالى رغم تهديدات عمته يصطاد لهن ــ مظهرا البراعة الفائقة ــ الفراشات البيضاء وديدان الأرض العمياء التى هرستها أحذية الجند حتى الموت ، يوم أقبل المنادى الاكرش عليهم يدق طبلة المعادى ، منادياً حراس الأسوار وبوابى العمارات المجاورة للانتظام منه ، وليجرسوه وليهتكوا سره .

يومها كم تشابكت السياط فوق ظهره ورأسه وغامت عيونه بالدموع والعرق المالح فرأى المدن ترقد قتيلة يتصاعد منها دخان الحرائق ، وصرخات المهزومين فى الشعاب الملتهبة حول (البردويل) و (عيون موسى) مختلطة برائحة المحاصيل المتعفنة والمياه الراكدة والبول الدموى .

وتذكر كيف كانت (الغولة) ذات العين المنطفئة تزوره تحت ستر العتمة فتلفه بذراعيها الخشنتين محاولة سحق قلبه تحت ضلوعها فيجاهد للافلات مذعورا ، جافة فى عروقه الدماء ، متحجرة تحت جفونه دموع اليأس والكلمات ، فتتركه مغضبة

متوعدة اياه بكل أنواع البلايا • منذرة أنها ستعود فى الصباح مكررة المحـاولة مرتدية ألف قناع وقناع • وستحكى له ما لم يعرف من حكايات الأشرار وسير الأخيار وستغريه للذهـاب معها الى حدائق الرمان واعدة أنها سـوف تعبر به الأبواب المغلقة الى قصـور الأحلام حيث جنيات الليل الطيبات ينتظرنه بالسعادة الأبدية ، فيطيعها وجلا ، بلا اعتراض ، نادما على تمرده ليكتشف فى الصباح أنها حولت بحارته الى خنازير ، وعرتهم من ثيابهم وشبابهم وشوتهم على السفود •• ومـلأت سفينته بالجرذان والعقارب بعد أن كبلت الرياح الأربع ، لكنـه ظل يصرخ ، تعذبه لهفته وشـوقه الى النجاة بجلده ، فلم يحضر على صراخه الا الحراس الحليقى الرأس ذوى الرقاب الغليظة والحراب الشـوكية فحاول أن يفر هاربا لكنـه نسى حذاءه القـديم الوحيـد تحت شجرة التوت الحبشية ذات الثمـار الدموية •• فلحقوا به وضربوه ضربا مبرحا فى البيت ثم جلدوه فى المدرسة حتى بعد أن تأكدوا من موته تماما •

••••••••

وخزه الجـلد القـديم المحترق فوق ظهره وأكتافـه فتوتر • ورغم أنه لم يعد يحس ألم عصى الخيزران الرفيعة ، أو السياط السودانية المعقودة فى

الزيت لكنه ارتجف وتكور حول نفسه وتساءل عن سر رعبه ، وكل شيء قد أصبح على ما يرام الآن كما يقسم رفاقه • وأحس بخجل شديد منهم ، أن يسمع أحدهم صراخه أو يرى ضعفه ، فيظن به الظنون أو يتنبه بمحاولة خداعهم • وساعتها لن تغفر له كل هذه السنوات الطويلة من الحزن والألم . ولن تشفع له تلك المسافات التى قطعها فى سفر لا نهاية له عبر المكان الواحد والزمان الذى لا يتكرر فآثر الصمت ••

وحل مع صمته الصمت على العالم ••

حل فجأة مثلما مات هو فجأة تحت الأقدام . ولم يعد يسمع من مكمنه سوى صوت طحن ضلوع بشرية وانسحاق عظام أثرية ، ونشيش شواء لحم حى وصرير أبواب عتيقة ، يفضى الواحد منها للآخر ليفسح المدى لرنين سلاسل ذى صدى عميق الابعاد يبتعد فى رتابة حزينة ••

الصباح الذى حل قبل بدء الرحلة

يوم جاءوا به الى هـذه المدينة العجيبة ذات الأسـوار العالية • بكى والده انفلاح العجوز ـ الذى لم يغادر قريتـه أبدا ـ وسالت دموعه وهو يتأوه بحرقة أمام البوابة الرئيسية لحظة شاهده عاريا كما ولدته أمه يعبر الطرقة بلا خجل ، خلال الباب الضيق الى صـالة الاستقبال • حيث كان طابور من العساكر الأميين يقف فى استقباله رافعا العصى الخرسـاء على كتفه • وجفف الوالد دموعه فى الملابس التى كانوا يلقون بها اليه قطعة وراء قطعة بعد أن ينتزعونها بقسوة من فوق جسد طفله تحت وابل العصى والشتائم • ووجد بقية من قدرة ليغسره ينصائحه دون أن يدرك فوات الأوان :

ـ كان ما لنا ولهذا ، أن أحدا منهم لم يعرف طريقه الينا أبدا • نحن قوم فقراء يا ولدى وضعاف ، عملنا هو أن نزرع برسيم البغل الذى يعبده أسيادنا.

نحن الكوبرى الأزلى الذى يعبر فوقه الملوك والغزاة وتمر فوقه العصـــور ــ الكوبرى يا بنى لا يتسرد على الأقدام التى تعبره ــ والنيل : لا يسأل عمن يشرب منه ولا عمن يتبرز فيه •

ــ أرهقتنى كثيرا وظلت اخوتك البنـــات . من سيتقدم اليهن بعد اليوم وهم يلقون بملابسك هكذا فى وجهى دون اعتبار لمـــا دفعته فيها ؟ • أنا الذى كنت أظن أنها ستزيدك قيمة واعتبـــارا ، لقد عرقت وتعبت فى حقول النـــاس ، وســـدت بذور قمحهم وكتانهم لحمى وسقيتهم ماء أيامى ودمـــوع عينى . وكان أملى أن أكسو جســـدك وأسترك ، وها أنت تتركهم يلقون بها فى وجهى بلا مبالاة •• يا للجحود! مليون ســـنة كاملة مضت لم تفعل ما يغضـــب العبد أو الرب لتـــأتى أنت على آخر الزمـــان فتبيح لهم ساحتنا ، قلت لك كثيرا لا تفرح أكثر من اللازم ، نحن لا فرح لنا •• قلت لك كثيرا لا تحلم أكثر من المعقول فأحلامنا مشانقنا • قلت لك ابتعد عنهم فهم طينة أخرى ، لكنك آثرت الاقتراب منهم لتنافسهم •• أتظن أنـــك ند لهم ؟ أنت مغفـــل ، وأنـــا الذى

حسبت العلم والتعليم سيهذب من طباعك وأخلاقك ويحميك .. آه . !

ـ يا ليتنى كنت قد ربيت بهيمة ! كانت ستعطينى وتريحنى لماذا يارب رزقتنى بمن يأتى ليفسد فى آخر عمرى سجل حسناتنا ، الوالى أطيب خلق الله . لكنك جاحد هكذا كنتم منذ آدم والى الأبد ، هو يفعل كل ما يستطيع لخيرنا وأنت تسير عاريا بين الحرس لتفاخر بدناءة أصلك ، يا ولدى أطعنى ، افعل ما يريدونه لانه لا يجب أن تفعل ما لا يريدون . هكذا الحياة ولقد وعدونى ، نعم وعدوا أن يعيدوا اليك كل شىء ، ولى . وعدنى حضرة الضابط .. انه ابن أصول وقادر على أن يفى بوعده .. بالتأكيد سيفى بوعده .. !

.....

ملأ وجه أبيه المذعور الفراغ المحيط به لحظة اصطدمت به كف رئيس النوبة فى قسوة وعنف . تطاير خياله شظايا قبل أن يغيب الوجه المرهق العجوز عنه نهائيا خلف الباب الثقيل العتيق ذى الصرير الشيطانى ، والذى أغلق فى عنف وقسوة ، ليحول دون اتصال النظرة الهلعى بين الطفل

والعجوز • لكنه استطاع أن يراه رغم القناع الأسود القاتم الذى أدخل رأسه فيه ورغم الخشب الأثرى السميك ، رآه يعصر كومة القطن والصوف التى تنضح برائحة العرق المألوف ، والتى تبقت له من (ضناه) فى رعب وذهول ، وسمعه ينشج فى ذل ويدق بقوة سنوات عمره الطويلة المليئة بالشقاء محتجا فوق الباب الأخرس ، ثم متوسلا كمتسول ليسمحوا له بوداع وحيده ان كان لابد من اعدامه ، لكن القبضة الواهنة التى امتصت منها الحقول البخيلة ماء الحياة . عبر سنوات طويلة وحقب أزلية ، لم تستطع أن تصل بصوت طرقاتها الى أذن كبير الحرس الجالس فى صدر الديوان السلطانى ، فكف عن المحاولة واستدار فى فتور ويأس مبتعدا عن سور المدينة الأخرس حتى وصل الى الشارع الرئيسى المرصوف واستطاع أن يدس نفسه داخل عربة مزدحمة وهو متشبث بما تبقى له من ولده ، وبعد أن نجح فى العثور على مكان لقدميه وسط الزحام ، سمعه بعضهم يهمس معتذرا لمن يقف الى جواره ــ وكان فحلا عريض المنكبين تبدو عليه النعمة ــ خشية أن يكون قد ضايقه قائلا فى صوت واهن مؤملا أن يشاركه أحزانه :

ــ على الأقل هو فى أمان هناك ــ صدقنى هو فى أمان .

لم يبال الفحـل به ولكن ركابا بسطاء من صيادى السـمك والسكرية حدثوه كثيرا عن تلك المدن وعن ضربات الحظ المؤكدة التى تهب الراحلين اليها السعادة والغنى وطول العمر .

حدثته امرأة سمينة سمراء عن أوراق مجهولة بها طلاسم ورموز . من استطاع فكها دلته الريح الى طريق مدينة النحاس ذات الشوارع المرصـوفة بالبلور الصافى والعذارى المغنيات والحمام الأخضر الذى يصلى طول اليوم على النبى .

وأكد له شاب مقطوع أصابع اليد اليمنى حقيقة السينات الثلاثة والاختيار الصعب الذى يكلف البعض حياتهم أو جزءا من أطرافهم ، ويكلف البعض الآخر رجولتهم وقـدرتهم على الانحـناء .

وحكى له عجوز أكثر منه خبرة ، عن رؤوس الفرسـان المقطوعة من جـدر الرقبـة والتى تعلق فى يوم السـوق على الأسوار ، لتظل فى مكانهـا حتى يأتى الفارس الأخـير ليكمل الأربعين عدا ، فتبدأ الطقوس مرة أخرى ، استعدادا لبدايـة العام القادم فتتم الدورة من جديد ! .

تذكر العجوز أيام كان ابنه يقرأ له عن تلك المدن فى كتب الأيام والتاريخ فاستوثق وآمن واعتصم بحبل الله ، لكنـه

لم يطمئن تماما ؛ اذ أنه تذكر عندما تركوه وحده بجوار السور الأصم الذى (لا طاقة له ولا علاقة) فأخذ يبحث عبثا عن تلك (السعفة الخضراء) المزعومة والتى تفتح السبيل خلال الأحجار الصخرية ؛ لكن كفه لم تلمس بسبب الظلام أسفل الجدار ، سوى بقايا حيوانات ميتة وبشر يحتضرون ونفايات عضوية تنتة ؛ فأخذ يغرى جاره الآخر المنسحق بين الأجساد الملتهبة بالعرق والضيق ــ مسريا عنه قائلا :

ــ صدقنى هو فى أمان أكثر هناك ؛ فأنا عندما أخذته اليهم مختارا رأيت فى عيونه نظرة عرفان ، نعم أنا متأكد أنها نظرة عرفان عميقة • لقد كان متعبا ممزق الجسد محترق الجلد فى أكثر من مكان بسبب بقايا السجائر وكان دامى الوجه ولكنه كان من أعماقه يشكرنى فلم يكن ممكنا أن تستطيع أقدامه حمله أبعد من ذلك •• وكيف يهرب وقد تخلى عنه أصدقاؤه وكانت هى تخونه علانية وهى تقسم أنها تحبه ؛ ألا تصدق ؟ وأكثر من ذلك لقد وعدونى بالمحافظة عليه واعادته عندما يرضون عنه•• أقسم لكم جميعا أن رئيس الحرس التركى ضحك فى وجهى وربت على كتفى ووعدنى أن يعتبره فى

مهمة رسمية بلا بدل سفر بسبب نفاد البند ؛ وعندما شكرته نهرنى بينما ابتسم ولدى يشكرنى وهم يجرونه بعيدا ؛ التفت نحوى يغمرنى بعرفانه ثم ذهب صامتا معهم ؛ ذهب بكامل ارادته ، وتركنى وحدى مرهقا متعبا باكيا بسبب أفعاله ، يا لنكران الجميل .. فعلت كل ما فعلت من أجل مستقبله ثم يتركنى ويذهب معهم أيرضيكم هذا ؟ .

لكن الصمت فقط هو الذى واجهه . وتشاغل أكثر الركاب بعد أعمدة النور والأشجار . وابتعد الفحل مشمئزا ، بينما مصمصت العجوز شفتيها ؛ وتنهد العجوز الأكثر خبرة فاسترسل مخاطبا تنهيدته المتعاطفة :

ـ نحن العواجيز عجزة بما فيه الكفاية .. ويجب أن نتذرع بالصبر ونستغفر الله لخطايانا القديمة .. فمن يستطيع أن يفهم حكمته فى ذلك ؟ . ومن منا بعد كل هذه السنين يستطيع أن يفهم أسرار تلك المدن التى لا تفتح أبوابها الا بقوة الكلمات التى يعرفها ابنى بالتأكيد ؟ هو متعلم بما فيه الكفاية . صحيح أنه لم يرد على عندما ناديته ليفتح لى

ولكن ماذا كان بيده أن يفعل ؟ وهم لم يعطوه فرصة كافية ليعلمنى تلك الأسرار ! .

.....

وتذكر العجوز وهو يصعد سلم البيت أن ابنه كان يهوى عد الدرجات صاعدا أو هابطـا فأخذ يعدها اكراما لذكراه ، وعندما وجده يجلس أعلى السلم فى بنطلونه القصـير مغضبا تفجرت فى قلبه ينابيع الذكريات القديمـة وتزاحمت تسـابق بعضها فوق لسانه عشرات الحكايات السعيدة التى سمعها أيام طفولته الأولى التى نسيها ، ابتسم ابتسامة متسامحة وحـاول مصالحتـه ولكن ، ما أن فتحت له الأم الثـكلى الباب ولمحت ملابس وحيدها قتيلة بين ذراعيـه حتى غاضت الابتسامة تحت لهيب نظرتها المتحجرة .. وارتمى على صـدرها منتحبا كطفل يرجو المغفرة لأنه بوغت مبللا ملابسه الجديدة صـباح يوم العيـد ! .

المساء الذى حل بعد بدء الرحيل

أخذ الحارس ذو الملابس المزركشة يعبث بشاربه الكث متأملا القادم العارى بامعان ذى خبرة ، متحفزا يبحث عن سبب للانقضاض عليه وسحقه بين أصابعه ان لزم الأمر ، أو امتصاص دمه حيا حسب الأحوال .. وكلما اقترب القادم منه ازداد معرفة به فازداد عبوس وجهـــه . وحينما أصبح قاب قوسين أو أدنى ضحك فى وجهه ضحكة جوفاء صاخبـــة جعلت عظـــام الفتى النحيلة ترتجف تحت جلده رعبا ، فأسرع يشبك ذراعيـــه فوق صدره مصليا يحتمى بآله قديم كان يقدســـه أجداده الأوائل .

وبعد أن فحص الحـــارس أوراق النزيل دون أن يقرأها فتش شعره وثنايا جسده الأبيض العارى فى شبق بهيمى ، ثم قلب شفتيه فى احتقار . وأصدر صوتا قبيحا طويلا بفمه وأنفه معا . فأضحك ذلك جمع الأطفال الذى تجمع فى أرجاء المكان لرؤية القادم الجديد والاحتفاء به حسبما تقضى طقوس المدينة .

ونبعت ضحكات الأطفال مشاعر الوافد الجديد وأيقظت بقلبه حلما قديما حبيبا الى قلبه فدار بعينيه يائسا يبحث عنه بينهم ــ اذ كان يحلم طوال عمره بأطفال يضحكون من القلب ــ لكنه لم يتبين أية مشاعر سعيدة بقلبــه ؛ وانما اعتصره خوف رهيب ؛ وضحكاتهم تكشف عن أسنان سودها الدخان الرخيص، وعيونهم تنزف سائلا لزجا كعيون مدمنى المخدرات •

أعاده أحدهم من وهمــه عندما ألقى اليه بخرقة قديمــة قذرة كى يستر بها عورته ؛ وهو يلعن أمه وقلة حيائه •

وتقدم منه أحدب ماكر شديد الحيوية باسم الوجه يعرج عرجا خفيفا ؛ وأشار اليه خفية أن يتبعه الى حيث ينبغى أن يقضى ليلته الأولى •

التفت الى الحــارس مستأذنا لكنــه كان مشــغولا عنه بالتهام فخذة انسان آخر ؛ فمضى والأحدب أمامه يقفز خطوة بعد خطوة فى احتراء وأدب حتى وصــلا الى حجرة كئيبة فى آخر الطرقة المحدبة السقف فدفعه فجأة الى داخلهــا بحــركة سريعة ثم أغلق الباب عليه وهو يطلق ضحكات ساخرة مشروخة •

ولكن هــذا لم يغضب الفتى • بل على العكس تماما ؛ أحس براحة ساحرة عندما وجد نفسه وحيدا لأول مرة من زمن

بعيد • وكان فى حاجة ماسة لبعض الراحة يذيب فيها ضوضاء يومه الرهيب ، وأحس بدوار خفيف بعد اغـلاق الباب اذ هدأ كل شيء فجـأة وكأن العـالم كله قد مات ـ فلا صـوت ولا حركة ـ وجسد له الصمت الثقيل ثخانة وصلابة الجدران ، وملاته الرطوبة والعفونة التى تنضح من مسام الصخر الجيرى احساسا عميقـا بالمسافات والأزمنـة ، وكأنما هـذه الحجرة الضيقة قد انفصلت عن العالم الملموس كقطاعة حجرية سقطت فى الفضاء اللانهائى •

وخمن حسب خبراته وصحة تقديره فى مرات سابقة أنهم لابد وأن يتركوه ليستريحوا من عنـاء اليوم الطويـل معه ، استعدادا لطقوس تعميده كمواطن للمدينـة فى صباح الغد ، وملأ صدره فى محاولة يائسة لجمع شتات نفسه المبعثرة واستعادة وعيه الضائع بحقيقة الأحداث •

وسند رأسه مطمئنا فوق صـدر فكرته ، وأغمض عيونه المرهقة مستسلما داعيا اليه كل أحلام عمره المـاضى كى تهرب به الى حيث تولد المواقيت والمسافات • لكن تقـديره كان خاطئا تماما • اذ دار مفتاح صاخب مرعد على حين غرة فى طبلة الباب مخيبا أمله ذابحـا الهدوء المؤقت ، محطما هيكل الصمت من جذوره وانفتح الباب على مصراعيه بعنف • وخلف سيل من

الصرخات والسباب ـ اندفع يغرق الغرفة منطلقا من عشرات الشفاه الملتوية والأفواه المهشمة ـ اقتحم عدد كبير من الحراس والأطفال المشـوهين فراغ الحجرة الضيق وأخـذوا يدورون ويصخبون على الأرض المربعة الصـلدة وفوق الحوائط الرطبة المتعفنة مخترقين كل شيء ، نافذين من كل شيء ، حتى صـدره ودماغه • جلس بعضهم فوق فراشـه وتحته وتعلق آخرون بالسقف والزوايا ، بينما جعل الأحدب من حبل المصباح أرجوحة مضى يتأرجح فوقها بين النافذة وشراعة الباب الضيقة ، ماصـا ابهامه القذر فى استمتاع بينما راح بعضهم يتمرغ فوق الأرض المبلولة فى الوقت الذى كانت عين رئيس الحـرس تراقبـه وتتبعه طوال الوقت فلا تفارقه الا لتنقض عليه متسللة عبر غابة الأذرع المتشابكة والأجساد والسيقان تلقى اليه بالتعليمـات بلا صوت . أو محذرة اياه من العبث أو الاستهتار بقوة قائد السجن . أو الحديث مع الآخرين من النزلاء . أو تبادل الذكريات أو الطعـام معهم أو تخزين أى فائض من الطعـام المـيرى . والامتناع تماما عن احراز المشروعات تحت أية حجة كانت ! •

تقدم أحدهم منه فانتزع شعره من جذوره ، وحقنه أحدهم بحقنة كبيرة قذرة • وألقى اليه أحد الأطفال ـ وكان أعور ـ بلقمة سـوداء ، ابتلعها دون مضغ ، وألقى نفل آخر اليه بوعاء

قديم قذر تفوح منه رائحة سموم البوليتا المتحللة ليقضى فيه حاجته فى أى وقت يشاء .

وعاد اليه الأحدب ضاحكا فاتحا ذراعيه مرحبا به ، ثم همس اليه وهو يلصق فمه بأذنه اليمنى أن يتبعه الى الركن البعيد وهناك قال له بصوت هامس تعمد أن يسمعه الجميع على السواء مشيرا الى الرئيس :

ـ لابد له أن يدخن أثناء العمل وأثناء الراحة والا كدرنا جميعا . ولطم أهلنا فى الزيارة .. معذور! مرتبه ضئيل جدا ، بينما هو يعول أمه المشلولة وجدته الخرساء وخمس عيال يأكلون الزلط وزوجة ، وهو لو صرف قرشا واحدا من مرتبه على السجائر ستزنى أم عياله من أجل خبز الأطفال ، أو تهجره لتتزوج مملوكا أكبر رتبة والبلد مليئة بالعزاب والأغراب الكافرين . أنت أدرى بالأحوال والا لما سجنوك ! ألست تدافع عن الطبقات الشعبية ؟ انه من عز الطبقات الفقيرة ! .

نظر الى الأحدب نظرة عاجزة مؤكدا له أنه لا يقبل أن يحدث للشاويش هذا .. انه يرفض أن تضطر أى امرأة ـ

وليست زوجة الشاويش فقط ـ الى بيع نفسها بسبب الحاجة ، انه يمكن أن ينتحر لو حدث ذلك بسببه .

ضحك الأحدب وصاح بصوت أعلى :

ـ لا تكن طيبا الى هـذا الحد يا (كويرك) ان امرأته تزنى الآن من أجل المزاج ، فلا تهتم هكذا . امسح دموعك ، ليس هنـاك فرق كبـير ما دمت (ستطلع بالسجائر) .

ازدادت نظرته عجزا وانتابه الخجل . وعصر الاحسـاس بالذنب قلبه وهو يؤكد للأحدب أنه جاء اليهم عاريا لا يملك شيئا ، سوى تهمة باطلة فقد كل شيء بسببها أمام الباب . حتى نظرة عطف والده . وقد رآه الجميـع وهو يدخـل خـاوى الوفاض ، وكلهم فتشوه ، حتى الحارس نفسه فتشه بدقة بالغة أمام الجميع ، فكيف سيقع الذنب عليه لو ادعت زوجة الحارس أنه السبب حين تنوى أن تزنى بسبب الحـاجة وليس بسبب المزاج .. وأكثر من ذلك انه لا يفهم كيف تغير سـجائره ان وجدت مجرى التاريخ ـ بينما هو ينتظر حكم الاعدام ! .

ضحك الأحدب مرة أخرى دون أن يفهم شيئا . ونزل مادا يده متوقعا أن يلقى فيها (المعلوم) دون أن يبدى أى اشـارة الى أنه سيصدقه .وبعد فترة أنزل ذراعه يائسا ونظر اليه نظرة

تأنيب ثم أومأ اليه أن يتبعه الى ركن بعيد آخر ، وهناك بجوار الحائط الرطب ، قرفص ، وأخذ يعصر نفسه بشدة حتى برز شيء يشبه الكيس الطويل من استه ، فمد يده بعد أن تأكد من خروج معظمه باحناء رأسه جيدا تحت نفسه ، وسحبه بحرص وهو يبتسم ، كان كيسا حقيقيا من المطاط منتفخا ومشدودا يلفه خيط أسود قذر ، تنفضه الأعور فى محاولة لتنظيفه مما علق به من براز ودم وأخذ ينك خيوطه • وبعد ذلك فرد محتوياته أمامه على الأرض واختار شيئا ملفوفا مد به يده اليه ، فتراجع الى الخلف مشمئزا وقد هاجمته رغبة عنيفة فى التقيؤ •

وأغضب رد فعله ــ هذا ــ الأعور غضبا شديدا فصرخ مثل كلب حاصره المصلون فى (زاوية) • وتأوه متألما يستنجد برفاقه وبالحارس ، الذى أسرع يسد الركن بجسده الضخم محاصرا (اياه) فى الزاوية وقد اشتد انفعاله ، واشتعل حماسه الشبقى ، وبرقت عيناه وسال اللعاب من طرف فمه المكشر ، مثل كلب مسعور • وانهال عليه حتى كومه أسفل الجدار •

ثم جذبه بعنف الى وسط الحلبة فانطلقت الجوقة تدور حوله فى خطوات منتظمة بطيئة وهم يرددون أناشيد وثنية غامضة جعلت العجائز عند طرف المدرجات البعيدة يمسحن دموعهن تأثرا ويرسمن علامة الصليب بينما علت هتافات المزدحمين فى

الجانب الآخر المقابل للمقصـــورة الامبراطورية يطالبون بالقضاء على الضحية على الفور ارضاء للآلهة المتعطشة للهـــدوء النفسى ولمـــا سكنت حركته تماما أشار الامبراطور راضيا •

أمر الحارس الأعور والأحدب أن ينتشاه جيدا بحثا عن (المنشـــورات) التى لابد أن يكون قد أخفاها فى مكان ما ، مثلما نجح فى اخفاء كل أثر للسجائر ؛ ولمـــا فشلوا فى العثور على شىء استداروا وخرج الحارس غاضبا حانقا فتبعه الجميـــع مطاطئى الرؤوس خجلا من الفشل •

وعـــاد الصمت أكثر كثافـــة حين انصفق الباب •• وبسبب آلامه الحـــارقة وعجزه انتابه شـــعور حاد بالوحدة والمرارة وفقدان النصير • ووجد الراحـــة فى البكاء بحرقة ؛ وفى التفكير فى زوجة الحارس — تلك التى سوف تصبح مومسا بسبب سجائره ! •

ومر الوقت بطيئا ثقيل الخطـــا ؛ لكنه استطاع أن يلعق دموعه وجراحه محاولا التعود على آلامها وهو يجر هيكله الى أسفل النافذة ؛ ساعتها اكتشف أن رجه نجمته يطل عليه لأول مرة من بين التضبان فابتسم فى وهن ولكن الفرح غسل قلبـــه لمـــا تبين أن نظرتها الرقيقة الحانية لا تحمل أى معنى من معانى الاحتقـــار ! •

اليوم الذى جرت فيه الواقعة

صعدت اليه فى خطوات مترددة وسط دخان عربة التراحيل القديمة وابتسمت له على غير العادة بابتسامة رقيقة تشبه زهرة تفاح وليدة • للوهلة الأولى تعرفت عليه ؛ غريب هو ؛ وملفتة للنظر حقيبته السـوداء والنظرة العطوفة التى تطل من عينيه العميقتين • استجابت لدعوته بالجلوس ؛ وجد نفسه يحدثها عن رحلته واخوته ••

للوهلة الأولى تعرفت عليه ؛ ففى زمان قديم زارها وفى الحلم أكثر من مرة عانقته وشكت له مصائبها المنزلية ؛ وأنجبت منه أطفالا وسلالة ! • وتحدثت اليه من الشرفة ولامسته خلف الأبواب ؛ ورسمت ظل شاربه فوق هوامش الكتب المدرسـية وقبلته خلسة فى أمسيات الصيف القمرية وهى وحيدة تحـلم بعناق السماء وتنتظر كلمة الرب المخلص •

دعته الى الجلوس بجوارها على المقعد الجلدى وبعد تمنع غير جاد أعطته يدها أمام الركاب جميعا ومسحت فى حنان دمعة قديمة نزفتها عيونه المرهقة وهو يحكى لها عن جرح قديم •

وفى مساء اليوم الذى قابلته فيه لأول مرة حملته كالمريسات الى بيتها وتعمدت أن يشاهد كل الناس فرحتها الأولى •• وحين تزاحمت حوله السترات الصفراء والسوداء ، ابتسمت له مشجعة ومضت أمام الموكب تبشر بقيامه وصعوده وتهتف له !

••••••••

أجلسته فوق سرير عشيقها القديم وأشعلت له غليون والدها وغسلت قدميه بزيت الورد ، وأحضرت له سمكا وزيتونا وأطعمته بيدها • نسى معها معالم أرضه القديمة ، وانمحت ملامح قريته وأيام طفولته واختلطت فى قاع ذاكرته المرهقة كل أسماء بنات الخالة ، وبنات العم والاخوة ونداءات الأطفال فى ساحة (سيدى مجاهد) •

سعدت أمامه صخور الشواطىء المسننة وجذوع الأشجار الهرمة ذات الأشواك ، وسلالم أبراج المعابد الحجرية ، وعندما أجلسته تحت صورة

العـــذراء ، وغنت له وحـــده : ماتت الى الأبد ــ أو هكذا خيل اليه ــ صيحات العربات الوحشية فى كل مدن العـــالم • وكف الأطفال الجوعى فى عمق القارات الخمس عن الصراخ • وسقط عرش الشاه والامبراطور والخصى ولم تعد آذناه ترتجفان رعبـــا أو تسحقها أقدام العسكر المهرولة نحوه من أعماق الليـــل •

حدثته كثيرا عن اخوتها الأربعـــة الذين يحلمون بالهجرة ولا يكفون عن السعى اليها ، وعن أمها النزقة ووالدها المتسلط المريض بالسكر وبالضغط • وحينمـــا اكتشـــفت أنه يعرفهـــا ويعرفهم منذ أيام الميلاد : أهدته زهور فل من حديقتها السرية ، وغسرت وجههـــا سحابـــة رضـــا وأمل وحلمت بالثوب الأبيض والصلوات المختلطة بصوت الأرغن وزغاريد النسوة ! •

قالت تهذى :

بالتأكيد سوف يغفرون لنا ، أليس كذلك ؟ ••

فأجاب كرجع الصدى بين جدران رطبة قاتمة :

ــ اذا كان هناك ما هو مؤكد فانهم سيذبحوننا بدافـــع الشفقة عند أول مفترق للطرق •

وعندما تصلب جسدها وبرد حتى الموت ، انحنى عليها ورسم علامة الصليب وغنى لها أغنية تدشين البيت المزمور الثلاثين ـ « أعظمك يارب لانك نشلتنى ولم تشمت بى أعدائى • يارب الهى استغثت بك فستغيثنى • يارب أصعدت من الهاوية نفسى ، أحييتنى من بين الهابطين فى الجب » • وسقط على وجهه منتحبا يصلى لالههم لكنهم أنكروه وعلقوا دمها برقبته ، ومضوا وتركوه ملقى بعرض الطريق وليس الى جواره سواها رقيقة وذابلة كزهرة تفاح ميتة ، تحاول بكل ما بقى لديها من قوة أن تبعد عنه العجلات المسرعة وسنابك خيل العثمانيين اللامبالية ، والجرائد القديمة •

••••••••

من جميع الجهات زحفت نحوه ملايين الحشرات المفترسة •

فى البداية شرعت رؤوسها الدقيقة البشعة ، وأدارت قرون استشعارها المسننة فى الهواء تتسمع وتتشمم حتى اطمأنت ، ولما حاصرت جسده العارى المقيد بالحبال أقدام الحرس ذوى الرؤوس المحلوقة ، أخذت تنهش لحمه وتمتص دماءه قطرة بعد قطرة

وتفتش خلايا مخه واحدة بعد أخرى باحثة عن أسماء
رجال وصبايا مجهولات دون جدوى ! .

حاول أن ينهض ولكن أعضاءه رفضت أن تتحرك وخذلته، فقد كانت يد الحارس ثقيلة الى درجة هشمت أطرافه حتى العظام ، أطل عليه وسط ضباب أبيض ثقيل وجه كالح يشبه وجه ثعلب مألوف ، أخذ يشق لأنفه طريقا بين الأجساد العارية ، ثم أخذ يقترب من وجهه مترنحا فوق كتفين نحيلتين حتى لفحته أنفاسه الكريهة . وقال فى صوت أنثوى الغنجة والمخارج :

ـ ماذا تظن أنك تكتب ، لست سوى فأر ،
وسنلقى بك مع الآخرين طعاما للقطط الجبلية .
التاريخ وهم تعيشون فيه . فهو ليس الا عجوز ذو لحية بيضاء اخترعه الحكام ليحدث الأطفال عندما نريد لهم أن يذكروا شيئا بالذات . وفى يوم قادم بالتأكيد لن تتعرفوا حتى على صورته تلك ! . لن يكون لديكم ما تفخرون به سوى رؤوسكم المعلقة ـ على جدران مكاتب الدولة الكبرى ـ تشهد لنا ببراعة الصيد وغباء الفريسة ، كن عاقلا وفكر . ألست من أنصار الواقعية ؟ .. أهلك فى حاجة اليك . موهوب أنت والناس ستغفر لك ، وقد تصبح شيئا ،

والا فاننا سنبعث بك لتموت معهم هنـاك وسـط الصحراء أو قد تضيع أوراقك فى الطريق .. وكثيرا ما فقـدت أوراق وأوراق منـذ عرف المصريـون المقـابر ! ..

.....

وكم ابتلعت كثبان الرمل المتحرك أمما وقبائل ..

كل السـفن ستغرق ..

الشـطآن بعيـدة ..

وربابنة الأحـلام بمصر ..

ناموا فى الظل الرطب وبشموا من عطف السلطان ! ..

.....

التصقت به فاحتواها مستنجدا بطراوة أنفاسها أن تنقذه من حر الصحراء ، أخذت ترجوه فى رعب وحنان أن يتكلم ، وأن يعلن على رؤوسهم أنه لن يتخلى عنها مهما حدث وان اضطر فسيهرب معهـا أو يأخذها غصبا ان لزم الأمر .

انغرست فى جانبه أسنان الصخر الحادة ، فمضى يحدثها عن المدن المعدنية وعن بحيرات الزئبق حيث تعيش أسماك الفضة وتموت صغيرة • وكيف يجوع الأطفال وتنتفخ بطونهم وتخضر بسبب الطاعون • وكيف تفتح رسميا فى احتفالات مقدسة سجون جديدة كل يوم ويشنق طلبة لانهم يقرأون أشعارا غير مقررة •• بينما توزع فى الوقت نفسه جوائز الدولة على الشعراء فى احتفالات مهيبة • حدثها عن طرق الصدق الصعبة ، وعن الموت فجأة فى بلاد غريبة • حدثها عن دروب خفية تختنق فيها العصافير الوليدة بغازات الأفران ورائحة الأجساد المشوية ولا يكف المجانين والحالمون عن اختراقها بالرغم من ذلك بالآلاف كل يوم ! ••

قالت له : عدنى فقط حين يجىء الوقت ! ••

ذابت فيه وتلاشت • فأخذ يقص عليها أحداث رحلته الأولى فى أحراش الناس ولقائه بالوحش العملاق ذى العين الواحدة وفشله فى أن يفى بوعده ليتزوج البنت ذات الضفيرة الرطبة والوالد المجنون ، وفسر لها لماذا كان والده لا يضحك كثيرا • وشبك فوق جبينها ريشة الرخ الذى ربط نفسه الى ساقه لكى يعبر بحر الظلمات ، ووضع فوق رأسها فى حب تاج ملكة

الحيات ، وأطعمها حبة كرز سـالت فوق الشفتين عصـارتها الحـلوة .

ساعتها ضحكت وكفت عن الالحـاح وأخذت تسأله فى نزق أن يحكى لها على الحراس ذوى الشوارب المنفوشة . وعن الأطفال المصبوغة أسنانهم بالدخان وعن خبز الرحمة المغموس فى الزيت المسموم وعن (اليسك) الساخن وأرغفة الخبز الحجرية ، وعن الشاويش التركى رأس الفجلة ، كانت تضحك ...

لكن الكلمات تحجرت فوق شفتيه وماتت . ورآها امرأة أخرى ترقد الى جواره مصغية لكل أحاديث الدنيا دون أن تفهم شيئا ، فتهدم أمله فى استعادة المـاضى الضائع ووجد روحـه تتلاشى بين أصابعه كقطعة ثلج . فأكل لسانه ! .

أسرعت تهمس معتذرة محاولة استعادة صورتها الأولى ..

ـ لكنك رغم كل ذلك نجوت وعدت الينا منتصرا كانت محنة تجاوزها الجميع .. أذهله غباؤها المفاجىء ، لمـاذا يظن الجميـع أنهم منتصرون لمجرد مرور الأيـام وتحول الألم الى ذكريات ؟ ! أهى خدعة لكى ننتظر الموت فى هدوء ولكى نتفلسف ونتشاجر ولا نعرف طعم الحب ؟ ! استدار غاضبا وأعطاها ظهره وغرس عيونه فى الحائط الحجرى القديم الذى ينز دما . وراح

يتأمل آثار ملايين الأظـافر البشرية التى حفرت معاناتها فوق طلائه الكالح ؛ ويستنشق عبير الأنفاس والآهات التى اختلطت بحجارتـه الباردة الرطبـة عبر سـنوات طويلة من الدمـوع والأشـعار ...

ـ لم أرجـع بعد ..
ويبدو أنى لن أرجع أبدا ..
محصور قاربى المكسور الدفة ومحاصر ،
داخل ثوبى يرقـد رجل آخر ..
داخل كفنى يتحرك رجـل آخر
والأحدب خلف البـاب يراقبنى ..
يلصق أذنيـه ليسمع عما تتحدث ..
الأعور يرصـد خطـواتى ..
وسينبئهم أنك جئت الى الليـلة ..
وغدا سـيكون عقـابى أكثر قسوة ..
فهنـا لا يسمح بزيارة أحد منـا ..
ستشق دماغى أسـئلة الحرس التركى ..
القـاضى سيجرمنى ..

والرهبـــان سيهدر أكبرهم عمرى ..

وأمى لو علمت لن تشرب من كفيك المـــاء ..

وستخترق ضلوعى أحذية الجند الفظة ..

لن أنجو حتى بين يديك ..

الـ ....

لن أنجو رغم شفاعتك ..

ــ لا ترفع صوتك .. لا تصرخ يا ابن الكلب ! ..

انطفــأ الوهج المرتعش وجف الزيت ! ..

خرست كلمات الكتب المصفوفة فوق جميـــع الأرفف فى كل مكتبات العالم • وتوارت كل نجوم الليل ورحلت فجأة • !

وارتفع صراخ الأطفال انجوعى يطارده ويسد عليه جميع المنافذ • وأخذت أصابعه تتسلل نحو عنقها العاجى المستسلم فى رقة ثعبانية ؛ وانشـــق الليل عن صراخ العربـــة المجنونة مرة أخرى • وسحقت الأقـــدام الغجرية صـــدر الليـــل واندفعت صاعدة اليه السلم الحديدى فى غضب ؛ تحاصره ؛ وتنتزع ثيابه وتدفعه دفعـــا الى الصراخ رعبا وهو يهوى فى جب الحكايات القديمة ــ حيث الشياطين تقطع الوقت بمضغ عظام الأنبياء •

اليوم الذى عاد فيه سمرا الى القرية

حتى فى تلك المدن المجهولة تشرق كل صباح شمس وتغرد أحيانا عصفورة • فالانسان فى رحلة بحث الجوعى عن لقمـــة ، زرع الأشجار بجوار الأفران وبؤر التأديب وبينما الأمهـــات يغنين للأطفال الجوعى المنتفخى البطون على أبواب القبر يظل الفقراء الموتى يحلمون طوال العمر بالجنة ــ وحتى المتضى عليه بالاعدام ينتظر حتى اللحظة الأخيرة موعدا مجهولا ينفجر فيه العالم فجأة ، أو ترفض فيه الأشجار أن تتحول الى مشانق !!

وحين استيقظ كان العالم يومها مازال نظيفـــا مغسولا وكانت الأشجار حليقة وآثار المطر والصمت تؤكد له ان الجميع نيام والشر الكامن لم يستيقظ بعد ! •

صعد الحـــائط وتكور فى رحم النافذة الحجرية ،
واحتضن بعمق عيونه الولهانة حقول البرسيم الطرية

العاريـــة ، التى كانت تمتد حتى الأفـــق ، خضراء تستحم بالندى كامرأة عاقر ، دافئة النهدين تتصاعد من جســـدها أبخرة الرغبة تدعوه لبذوب فى دفء الطين البكر برودة كفيـــه المتشنجتين على صـــدأ القضبان • وخلال الدخان المـــائى المتصـــاعد من الأرض كانت أكواخ الطين المتلاصـــقة المذعـــورة كصبايا حاصرهن عسكر جند السلطان تستيقظ هى الأخرى فى هدوء مشبع بالتوجس والريبة والخوف من المجهول •

.....

حين عبر حواريها الضيقة الملتوية شاهد مولد نهار آخر يأتى الى الدنيـــا على غير رغبة مؤكدة ، وشاهد ملامح شمس أخرى تشرق خجلانة وجلة • ورأى رجـــالا معروقى الأكف ، مسصوصى الوجنات ، يعرفهم فردا فردا يغادرون بيوتهم متعبين رغم النوم الطويل يلقون على النهـــار نظرات غير مرحبـــة وغير مباليـــة ـــ منذ مليون من السنين وهو يشاهـــدهم يستيقظون ويخرجون فى كل صباح ، من نفس الأبواب الخشبية المنخفضة ، الى حيث تذيب نفس الشـــمس عروقهم المجدبة ذاتهـــا فى رحم الأرض ـــ فتنبت نفس الأعناب الذهبية ونفس الحشائش •

كان يحبهم دائما من كل قلبه وكانوا يحبونه ؛ وطوال عمره كان يعشق بكل كيانه الاندماج معهم والاقتراب منهم والتفانى فى مجاملتهم ؛ لم يكن ينفر من رائحة عرقهم على العكس كان يجد نفسه حين يستنشق عطر اللبن المتخثر والمش القديم عالقا بملابسهم حين يجالسهم فى زوايا الزرائب الدافئة المظلمة الا من ذبالة صغيرة تقاوم ريح الشتاء البارد • عندما كانوا يجلسون والقلق يملأ قلوبهم فى انتظار العجول الوليدة أو عندما يرهق نفسه فى تعليم صغارهم الحروف الجديدة أو يحل معهم مسائل الحساب المعقدة أو عندما يمسح فى حنان صادق أنوف أطفالهم ، أو يذوب فى كفوف عجائزهم أيام صباه فى محاولة اسطورية للحاق بخيول خيالهم الجامحة أو وهو يستمتع حتى أعمق الأعماق باللهو البرىء مع شبابهم فى دكاكين القصب الشتوية وأمام مداخل البيوت •

أمام نفس الأبواب التى يعرفها جيدا توقف يبحث عن شىء مألوف وغامض وبدا مضيعا لا ملامح له ولا هدف ؛ فبالرغم من أنه أبدا فى مشورة الأشرار لم يسلك • وفى طريق الخطاة لم يمض ؛ ولم يتآمر •• وفى طريق الخونة لم يفكر • وأضنى جسده الفراق الطويل واحتمل وكان حصاد

رحلتـــه الأولى قبض الريح ، وبضـــع حـــكايات ودراهم قليلة وأغنيات فقيرة لا تلفت انتباه أحد • لأنه لم تعد للكتب أو للقصـــائد أية قيمة واقفرت ساحات الشعر القديمة • وعجز الراوى العجوز عن اكمال ملاحمه بعد أن تساقطت أسنانه بفعل الرطوبة وسوء التغذية • لقد رست سفينته على شـــاطىء مقفر ومدينة سكرى بنشوة الاستعباد •

••••••••

حاول أن يجمع معارفه القدامى ، كما كان يفعل فى المـــاضى كى يقرأ لهم حكايات السلف والسير القديمة ، ولكنهم تفرجوا على حركاته وألاعيبـــه لحظتين ثم مضى كل منهم الى شواغله وهمومه ، وحينما هز (كلب السباعى) الأسود ذيله وتمسح به متعرفا على رائحة عرقه (سفخته) زوجة (السباعى) البيضـــاء حجرا ، فانطلق يعوى ناحية الحقل محتميا بالظلام • فاستدار هو يائسا ومضى الى الساحة القمرية فلم يتعرف عليه أحد من الأطفال ، فقد كانت سنوات غيبته كافية لكى تنتفخ الارحـــام مرة بعد مرة وتفرخ أجيالا لا تذكره • عند بيت (عيوشـــة) لم يسمع غناء ، ولم يشاهد لعبا ، ولكن ينبوع الشعر تفجر فى

قلبه لحظـة شـاهد عند أول الطريق الصـاعد الى البحـر القديم ـ صديقه غارقا حتى الصـدر فى طين (المعجنة) فاقترب فاردا ذراعيـه فى لهفة ، محاولا تذكيره بنفسه • ولكن صديقه كان منشغلا فى عراك مع زوجته الهزيلة العجفاء التى كانت ترضع طفلا (نزازا) من ثديها المترهل المتدلى كورقة الصبار ، وفوق رأسيهما لمبة غاز عارية تتناثل الريح ، وترسم على الأرض والحوائط ظلالا مرعبة مهولة ! • ولـما لم يبد صـديقه اهتماما ، استدار ويمم شطر البيوت وقد تدلى ذراعاه مشـاولان الى جانبيه •

من أى الأبواب سـيمضى
مغلقة كل الأبواب ومنتهـكة
فتحوا قبر السلطان السابق وجدوا كنزا
وجماجم فتيان وصبايا كفنها فى أثواب منقوشة
حفر الجلادون القبر أمام السـلطان اللاحق
وجـدوا جثـة سـلفه
مثقوب العينين ومنتزع الأطراف
بلا أكفـان
أمر السلطان الآتى أن يحرق جسـد
الراحـل كالكفـار

ودعا الدهماء وزعران السوق فنهبوا كل حواصله

ومخـــازن قمحـــه ..

سبع ليـــال أكل النـــاس اللحم

وسبعا ذاقوا طعم الخبز الســـاخن

دخلوا المسجد صـــلوا للرحمن العاطى

قـــالوا .. رحم الله الســـلطان ..

ودعوا أن يهب المنان لهم كل صباح سلطانا يرحل

كل مســـاء ..

.....

ماتت أخت السلطان الراحـــل حزنا وكمدا وكانت طاهرة الذيل ما زالت عذراء • يوم ذبح أخوها شقت صدرها وكشفت رأسها ؛ وجرت فى الشوارع ؛ وهى تدعو الله الجبار :

ـــ هو ذا يمخض بالاثم يحمل تعبا ؛ ويلد كذبا • فى الهوة التى صنعهـــا يسقط • وعلى رأســـه يهبط ظلمـــه • ويكون الطوفـــان ! •

.....

اضطرب الناس وذهلوا من هول الهول ، كانوا يعتقدون أن لها عشيقا جنيا من أهل سقر وأنها تعرف أسرار السحر • ولكنهم خافوا أن تغدر بمن يواسيها فتركوها لتموت حزينة • وأمر السلطان فحفروا أرض خلوتها • فعثر الجند على ثلثمائة صندوق من ذهب خالص ، وأوانى فخارية متخمة بزيرت عطرية سحرية تهب الأجساد البشرية ريا أبديا • وعثروا على دهون للشهوة تذهب عقل الحكماء فاعتقل العسكر أهل البيت • ولم يعرف أحد أين مضوا بالفتيات البكر أو الأولاد •

وجدوا طن دنانير فضية عند الماشطة • وجوالين من الذهب الابريز عند الداية والبلانة • عصروا البواب فاعترف — ودل على مكان فى خسارة ، فيه ألف ألف صندوق من عملات رومية •

هذا غير ما وجدوه من قماش وفرش وخيول وحمير وجوارى وعبيد وطواشية وشون مليئة بالغلال وأقبية زيت تفوق الحصر •

.....

حملوا احقاق الدهن وأكياس الذهب الى السلطان • وأغلقت الأبواب ، ومنع السير وكمن العسكر والبصاصون فى

المكامن الخفية ، يترصدون ضعاف الخلق كنمور شرسة تخطف وتنهب وتجرى لتثير الرعب فينسحق المسكين ويتوارى القوى .

.....

وانتظر الناس الخير ولكن شيئا لم يتغير .. السلطان احتفظ بكل الميراث لنفسه وأمر الجند بغزو الأسواق . وأطلق أيديهم فى أمر عوام الناس ، فأعملوا فيهم السيف والنطع وانتشرت الخوازيق فيما بين الرميلة وبين القصرين ، واختفى القلب الرحيم ووقف بعيدا مثلما يفعل عادة فى أيام الضيق والكرب الكافر منذ الأزل .

.....

لم يبق أمل فى أن يتعرف أحد منهم على صوته ، أو أن يتذكر أحد سخنته المتورمة من أثر أعقاب السجائر واللكمات !.

.....

فى جذر الثعلب المطارد تقدم وألصق وجهه بالباب الخشبى القديم فى أول الحارة واستنشق حتى النخاع رائحة الحنوط

والتوابل القديسة .. وخطا أول خطوة فى الدهاليز الرطب الهادىء ـ الذى كان يصخب يوما بضحكات بنات وأولاد وماعز وكلاب صغيرة . فوق الجدار كان ثمة صور ونقوش يعرفها تحيط بموضع المصباح المطفأ الذى مازال الزيت ينزف منه .

عند الباب الأول جلست المرأة الهائلة ذات الفخذين ـ التى تفوح منها رائحة الروث الدافىء والقشدة .

عند الباب الثانى التفت اليها مذعورا وهو يسمع فى الظلام نداءات مختلطة وأصوات عذاب حاول أن يتبين مصدرها فلم يتمكن .

على أكوام البرسيم الأخضر المنروشة فى الركن البعيد استلقى وأمسك بضرع البقرة المنتفخ . ارتعش الضرع فى كفيه وتوتر ، ثم انساب منه اللبن الدافىء يروى عطش الشفتين الجائعتين . اقتربت منه المرأة ذات الفخذين الهائلين عارية وقالت فى حدة : يكفى هذا اليوم ـ ثم أردفت فى دلال ـ : اذهب لا تفضحنى لو استيقظ زوجى لن يرحمنى ، يقدر أن يرسل بنا الى العرقانة أو الى جب القلعة ـ اذهب ، ماذا سيلم بى لو أخبره أحد الأطفال ، الأعور يلاحقنى والأعرج يكرهنى ،

يكفى هـذا .. أنت لم تقفس بعد من البيضـة وتطـالبنى بحقوق رجل ! .

.....

يعرف انهـا تكذب ، تفضحها نظرة عيونهـا التى تلاحقه ، ما زالت تشتهى أن يعاود الشرب .. لكن خيط اللبن انقطع فجأة .

وحين تركته ومضت تجر حمول اللحم الشهيـة خلفهـا لتغيب فى ظلام الأزمنة السحيقة تحت السلم الحجرى .. أحس بخوف قاتل يعصر قلبه فخـار كالعجل الرضيع وانطلق يبحث عنها ليسكت صراخ معدته التى لم تشبع بعد !

حين وصل الى السفح كانت القمة غائمة وسط سحابات رمادية وبدأ مضحكا وهو يطلب النجدة صارخا ، مثل فأر غارق فى النهر ذات يوم مطير . واخترق أذنيه صياح أطفال داهمـه فجـأة من الشاطئين وحـاصره التهليـل والضحك . واعتصر ذاكرته عندما بدأ يلاحظهم كلهم حوله يرقصـون ساخرين ، لم يكن واثقا كل الثقة وتمنى أن يخيب ظنه مرة والى الأبد ، لكنه شاهد الأسنان التى سودها الدخان وتبين انطفاء العيون التى تنزف فى ضوء الشمس وكلها تشير نحوه فى مرح ونشوة ،

كانوا أمامه مباشرة وخيل اليه أن بعضهم يتوعده ، فأحس وخز صدأ الحديد وشعر بخدر شديد فى أطرافه بسبب جلسته المتعبة. ولسعته برودة القضبان حين لمسها خده الأيمن للحظة . فتأكد انهم قد لحقوا به وقبل أن يفكر فى طريقة للنجاة ، كانت الأيدى القوية قد نزلت كالصواعق فوق رقبته من خلف وانتزعته قسرا من بطن النافذة المضيئة وألقت به فوق الأرض الصلدة فأعشت العتمة المفاجئة عينيه ، ولم يعد يتبين أو يحس شيئا — أى شىء .

الليلة التى بدأ بها الرحيل

كالشجرة عند مجـارى المـاء كانت خضـراء ـ وخصـبة لا تذبل ، لا تخلف وعدا ، تعطى الثمر بكل أوان ! •

••••••••••

فى تلك الليلة جاءته كعادتها دون موعد ، دائما كانت تشعر بحاجته اليها ، ودائما كانت تأتى اليه حين يبدأ فى التفكير فيها ، كانت توأم روحه وتميمة سـعده أيام صاحبته فى رحلاته البحرية منذ فكر فى مغـادرة القرية للبحث عن نقطـة التقـاء الأرض بالسماء • وأنقذت مراكبه القديمة المتهالكة أكثر من مرة وحمته من هول العواصف ودوامات الموج والحيرة •

وقادت الطريق أمام قوافله الى ينابيع المـاء والواحـات الخضر عندما حاصرته الكثبان الرملية ورياح الهبوب •

وحمت ظهره يوم اشتبك مع التنين ذى الرؤوس الأربع ، وقطعت أسلاك المعتقل سرا وهربت به تحت جنـاح الليل وأعطته طعاما وشرابا وسيفا • ودلته الى درب العودة الى الفسطاط يوم كان الصليبيون يبحثون عنه للانتقام لفتاتهم المنتحرة •

لكنها جاءت بهم فى اثرها هـذه المرة •

عصف الشـك برأسـه لم يبح بما يوغر صـدره بل حاول جاهدا ألا يترك الفكرة العابرة الشريرة تفسد فرحته بلقائها ، وحاول أن يخفيها عن عيونهم عنـدما اقتحموا الحجرة عبر الحوائط والنوافـذ المغلقة • لكن جهوده ذهبت عبثا فقد ألهبته بجمالها الرقيق وعطرهـا الاسـطورى ونظرة التسـاؤل الغامضة ـ التى كانت ترتعش فوق جبينها الناصع فجعلت الجميع يحاصرونها بالأسئلة والعصى •

تعـاظم احساسـه بالأحذيـة الحكومية منذ وحد مينا القطرين ووضع أسس الحساب ، ومنذ أجهد قائد شرطة عبد الملك بن مروان نفسه ومساعديـه فى اثبات الأحاديث الشريفة وقهر المتمردين • وخيل اليه ان كل الأقدام (النبيلة) والملكية تحـاول

أن تختبر قدرة أضلاع قبيلته على الاحتمال وهى تجهد نفسها فى ركل منتظم ومحسوب • وحينما جروه على الأرض الصلبة الباردة أخذ يفكر فى الجثة • وأعطته لهفتهم فى تبادل الاعتداء عليها فرصة لاعادة التفكير ، مركزا كل ذاكرته على أطراف أصابعه وعروق رقبتها المستسلمة النابضة باللذة •• وحاول الاحتفاظ ولو بخيط واه يربطه بالعالم الحقيقى وهو يخمن أنهم يأخذونه الى الشارع وحاول التأكد من ذلك وهو يعد عدد المرات التى ارتطم فيها رأسه بدرجات السلم ، وعلى السلمة الأخيرة بدأ يتبين ما حوله خلال غمامة حطت على عيونه ، اختلط فيها الأحمر بالأزرق •

••••••••••

لم يكن هناك شباك مفتوح فى أى مكان حسب أوامر صاحب الشرطة الجديد • امتد حظر التجول حتى موعد جنازة السلطان الجديد ولذلك اطاعت كل الجدران وظلت صماء صامتة ممتدة حتى السماء • وأطاع الناس أوامر الجند • ولزموا

بيوتهم فخلت الدنيا من أهل البيت وسكان الحارة ! .

.....

غمره فيضان من أمل كاذب ، حين لمح دكان السجائر الصغير المجاور لباب البيت لا يزال مضاء . لكن الأرض الحجرية ابتلعت ـ مثل كثيب الرمل ـ آثار الدم والعرق التى نزفها من باب الشقة حتى الرصيف ، عندما رأى الرجل العجوز الطيب يدير ظهره لموكبهم ويتظاهر بالانشغال فى ترتيب البضاعة. وذهب أحدهم ليتأكد من جدية انشغاله ورعبه . وعاد يبتسم راضيا . ليأمرهم أن يتذفوا به الى جوف العربة . وما أن صعدوا خلفه ، حتى انطلقت صامتة وابتلعها الظلام . وعادت الحياة تدب فى البيت وفى الحارة . وغمر النور الشارع وكف عن ترتيب بضائعه ، وفتحت شبابيك كثيرة ، وبدأ طفلان لعب الكرة فى بحر الشارع :

ـ كان كاذبا مشاغبا وكان يعشق الصغار .

ـ ذهب وهو مدين لى بسبعة عشر قرشا ، ولست أدرى من سوف أطلبها وان وجدت من أطالبه فلن يدفع - كنت أبيع له دون فوائد .

ـ رجل الدماء والغش يكرهه الرب •

ـ أتعرف انه كان يعاشر اختـــه فى الحرام ؟
وهى التى وشت به • أنا رأيتها بنفسى • الشيطان نقش على زندها صليبا أسود •

ـ يمهل ولا يهمل ؛ هذا كله لانه لم يدخل مسجدا فى حياته ـ كافر ـ منـــذ اليوم ســـيلعب أطفالنا فى أمان ! •

وحملت اليه الريح الغربية عتـــاب الحـــارة وانكارها ، فحمد الله ان أحدا منهم لم يسلمه مع ذلك • وحاول أن يدافع عن نفسه ، ولكن الكلمـــات خانته وعجز عن فتح فمه تماما • فقد كان لسانه ملتصقا بسقف حلقه من شدة العطش • وكانت أنفاسه تجاهد للنفاذ بصعوبة خلال كتل الدم اللزجة التى سدت حلقـــه ، وجفت حول فمه لكنه اســـتطاع أن يهمس لنفســـه بلا صـــوت :

ـ ورغم ذلك فاننى أستطيع التفكير فيها ! •

وانشغل بمحـــاولة تحريك أصابعه المهروسة ، حين خيل اليه انه سمع صوتا هادئا عميقا يناصره من بعيد :

ـ ما كان يجب أن تبالغوا الى هذه الدرجة ..
لو أنه مات فسوف تكون مسئولية جسيمة من
يضمن ألا تطالب القبائل بثأره ، الدنيا ستقوم
ولا تقعد ، فالتخلص من جثة حتى ولو كانت بريئة
أمر يحتاج لتدبير محكم . جثة أمثاله أعصى على
الافناء من جثة السلطان لانعدام الحجة فى عالم
لا ينسى الجثث ، ولكنه قادر على طى صفحات آلاف
الاحياء .. عليكم أن تكونوا أكثر حرصا فى
المرات القادمة ! .

فرح كصبى عثر على أمه . وفكر أن ينهض ليزود ذلك
الذى يدافع عنه بالوثائق الكافية ، وليثبت له حبه للشعر
القديم والحكايات الشعبية ورغبته فى أن يجد الجميع حتى
أولئك الذين ضربوه بيوتا بسيطة ، ومناشف نظيفة ، ولعبا .
وتمنى أن يذكر له اسمه وعنوانه وأن يطلب منه الذهاب الى
شقته . ليحضر له بعض الأشياء الضرورية ، التى لابد سيحتاجها
فى الأيام القادمة . لكن فشله فى تحريك رأسه ناحية الصوت
جعله يعدل عن الفكرة ، حتى ضاع الصوت الرحيم فى ضجيج
الأقدام المعدنية ورنين أصوات الآلات الكاتبة فبكى كطفل
فقد النصير .

لكنهم عنـــدما حلقوا له شعره وصـــوروه ؛ أعادوا اليه الطمأنينة فقد أكد له هـــذا أنه مسجل بعاليه فى دفتر ما ؛ وان له منذ الآن رقما وأوراقا رسمية ؛ تثبت لمن ســـوف يأتون بعده أنه كان موجودا • فليس هناك مصرى يمكن أن يكذب الأوراق الرسمية •• وبدأ القلق يزايله • وأحس أن ما يجب عليه هو أن يستريح من عناء يومه الثقيل فى حمايـــة الأحرف والأرقـــام الحـــكومية •

والحقيقة ان الارهاق كان قد بدأ يهاجمهم ، فاعتذروا له بسبب اقلاق راحته حتى هـــذا الوقت المتأخر ؛ ووعدوه باستئناف شغلهم معه فى الصباح ثم سمحوا له أن ينـــام وأجلوا كل شىء بحمـــاس ومضوا الى بيوتهم •

••••••••••

كان على أحدهم أن يتذكر شراء قلم ومسحاه لابنه الصغير• وابتاع الثانى وأكل فاكهة ولحما مشويا قبل أن يجـــامع زوجته الحـــامل بمجرد ولوجه باب الشقة ؛ بطريقـــة أثارت دهشتها واعجابها فظلت طوال الوقت تحذره فى دلال من ايذاء الطفل ذى الشهر الرابع •

أما ثالثهم ــ ذلك الذى كان قد توجه الى دكان السجائر فقد نام ملء جفونه فى أحضان زوجة زميل لهم كان موفدا فى مهمة مماثلة فى بلد بعيد •

أما رئيسهم فقد أعطى نفسه مثل كل ليلة لسائق سيارته النوبى فى قوف وهو يلعن كل الكتب والقصـــائد فى أركان الدنيا الأربع •

أما (هو) فقد ظل طوال الليل ينتبه الى تأوهات الزوجة الخائنة والزوجة الحامل وقائد السيارة الفحل النوبى المتمرس • لكنه لم يستطع أن يتبين شيئا فى الظلام الكثيف الممتد حوله الى أبعاد لا نهائية ؛ فمد يده محاولا التعرف على موقعه من المكان والظلام بتحسس الظلمـــة ؛ ولكن ذلك كان مستحيلا فكف عن المحاولة • وقرر أن يقطع الوقت فى استعادة صـــوت الزوجـــة الحامل والزوجة الخائنـــة ورابعهم الذى ظن أنه يدافـــع عنه والاكتفاء بذلك كخيط يربطه بالعالم ؛ ولكن حتى ذلك فشـــل فيه ؛ اذ آلمته جراحـــه وشـــق على ظهره المبزق تحمل قســـوة الأسفلت الخشن •• فأخذ يشغل نفسه باستعادة ما مر به من أحداث خـــلال يومه المنصرم وتخيل ما قد يحـــدث فى اليوم التالى ؛ لكنه عجز عن تذكر حروف اسمه الأول فكف عن أى

شيء ، واستسلم لشعور مؤكد بالبراءة ولاحساس ممتع بأنه مجرد جزء من كتلة الظلام والصمت التى تحتويه فى أحشائها ! .

.....

استجمع كل ما كان مقدرا له من قوة فى محاولة أخيرة ليدفع بجسده الى الخارج لكنه انتفض غاضبا عندما سمع الداية العجوز تصرخ فى جزع :

ـ رأسه كبيرة وقد ينحشر !

أراد أن يحتج لكن سيلا جارفا من القاذورات والدم الفاسد حاصره وغمره وأعماه وسد أمامه السبل فعجز عن النطق . وكاد أن يختنق .

لكنه لم يستسلم وأعاد المحاولة باصرار أكبر فقد كان يشعر أن نبض الحياة يغيض من حوله شيئا فشيئا ، وان حرارة المقاومة والرغبة فى البقاء ـ وهى زاد الضعفاء والمرضى ـ قد اقتربت من درجة الصفر .

ومثل فأر قرر أن يغادر السفينة التى كتب عليها

الغرق ، حاول للمرة الأخيرة ، عندما جاء صـوت الدايـة وكأنها تصرخ به مشجعة وهى تجذبـه الى الخـارج :

ـ هانت ، ساعدينى يا (أم هاشم) ، شى الله يا (سيدى مجاهد يا أبو عبد الوهاب) ابنك وطنيبك وحامل رايتك ! .

ولم ترد الأم .. فقـد كف كل عـرق حى فى جسدها عن النبض فى اللحظة نفسها التى اسـتطاع فيهـا الافلات منزلقا كالسمـكة الملساء بين ذراعى الداية الضامرين .

.....

ويذكر ـ ان يومها لم ينطق أحد بكلمة تهنئة . فقد كان الحزن يملأ القلوب والتسليم لارادة الله يخرس كل شىء ، فلم ترتفع زغرودة أو شهقة فرح فى أى مكان تزف البشرى بوصوله أو تهنىء أى انسان بمقدم ذلك الذى أتى من غياهب الظلمة .

كذلك ـ يذكر ان أحدا لم يبك . ولم ترتفع صيحة حزن واحدة تنعى تلك التى رحلت بل سمع أحدهم يقول :

ـ أراحت واستراحت ...

وكان هذا هو كل ما نطق به ذلك الوجه الذى أطل عليهما بملامح محـايدة والذى تعرف فيه ـ فيما بعد ـ على والده ! .

لم يعقب أحد على كلمات الأب فأعقب قولته بتنهيدة طويلة تنطق بطول العذاب والمعاناة .

اليوم الذى انكره فيه أهل القرية

حكيم القلب يقبل بالوصايا وغبى الشفتين يصرع ..

.....

أخذ يشق لنفسه طريقـا وسط بحر الملابس السـوداء بصعوبة . كل نسوة القريـة العجـائز تزاحمن على درجـات السلم ، وحدث هرج كثير ومرج ، وارتفعت صيحات وصرخات تنادى عليه ، وأحاطت به الأذرع الجـافة المعروقـة والوجوه المتغضنة ، وتكلم الجميع فى الوقت نفسه . يشكون له قلة الحيلة والعجز عن التصـدى لمن يسرقون أقواتهن ، وأخذ الجمـع يشده يمينا ويسارا والأفواه تكاد تلتهم أذنيه ، والأعين تمسح دموعهـا فى ملابسـه حتى بدا كقديس من عصـور وسيطة أو كتمثال لرب وثنى بدائى وعاجز :

ـ سرقونـا .. نهبونا .. أنت وحـدك من سينجدنا . ليس غيرك من يسـتطيع الحـديث اليهم بشـدة .. أنت تقـدر أن توقفهم عند حدودهم ، وما أظلمها ، كلهم لصوص وأنت تعرف .. نقلوا اللبن الى بيت الموظفين وأقارب العمدة وما هم فى حاجة اليه . (ابن خضرة) يطلب من كل واحدة منا عشرة قروش من أين ؟ .. يقول انها اكراميـة لمن هم فوق .. معقول ؟ هل يرضى من هم فوق بعشرة قروش ؟ انهم حين يريدون ، يأخـذون . ولكن ليس عشرة قروش أبدا .. انه هو الذى يريدها لنفسه ، . أنت تعرفه .. حلفنـاك بأمك الغالية ألا تتخلى عنا . !

ولم يكن فى نيتـه فى أى يوم أن يتخلى عن أحد . لا يستطيع ـ هكذا كان وهكذا سيكون حتى عندما صرخت فيه أمه وهى تتعلق برقبته :

ـ أنـا قلت لك ولم تسـمع لى ، لن يقف بجانبـك أحد منهم عندما ستقع .. أكثر من ذلك انهم يلعنونك الآن ، وغدا سينسون كل ما فعلت ، مالك وكل هـذا ! لست وكيل الله على الأرض .

الناس كالقطط تأكل وتنسى ولا يرى الواحد منهم الا ما يسكه بيده ، والكل لا يمسك هذه الأيام الا بجمرة نار ملتهبة تعمى القلوب . البعيد عن العين بعيد عن الذاكرة ، وأنت غبت كثيرا يا ولدى، سنوات مضت منذ رحلت عنا .. والبيوت أغلقت أبوابها على أبنائها ، الا نحن مازال بيتنا مفتوحا مثلما أردت أنت .

ولكن لا أحد يأتى ليطل علينا ، كبرت أنا ووالدك . ولا أحد يحدث أباك الا لضرورة أو لشفقة .. أولاد عمك أعماهم الخوف لم يذكروا أحدا منا فى نعى أبيهم .. وأنا عندما ذهبت لاعزيهم رغم ذلك ، كل النسوة ابتعدن عنى وكأنى الطاعون نفسه .. والآن يلجأون اليك ، أطردهم من هنا لا علاقة لنا بالعمدة ولا بلبن العمدة ، هذه المرأة حرضت بنتها على عدم مساعدتى فى الغسيل . وهذه رفضت أن تذهب بالطحين الى الوابور والآن يأتون الينا . يا ابنى نحن خائفون عليك والدك لم ينم منذ ليال من القلق . منذ جمعتين مر درويش غريب بالقرية ، رجل مبروك ذهب للجامع وهو يسبح الله فى كل خطوة ومع كل نفس ، ذقنه كالحليب وملابسه مرقعة ، من أهل الله هو ، من أهل الله .. اختلف الرجال فيما بينهم ، كل

منهم يريد أن يأخذه للغداء بعد صلاة الجمعة ، حتى يبارك له الله فى زرعه وأولاده .

الدرويش أغمض عينيه واستخار الله ، واختـــار حسب وحى الله والملكوت أن يذهب الى بيت ابن عمتك . زوجتـــه مبروكة ومن أهل الله . الخير حل ببيتهم بوصـــوله ، ذبحوا دجاجة التهمها كاملة والأولاد ينظرون اليه وينتظرون البركات . طول السهرة أقام الذكر وتلى الأوراد وسأل عنك ، كان يريد أن يغفر الله لك .. سأل عن أصحابك وعن مكان الكتب المدفونة فى حقل القطن .. من أدراه ؟ .. لقد سأل عن الأوراق الملصوقة على جدران الجامع وطلب تمزيقها قال ان الحكومة تأتمر بأمر الله . والسلطان خـــادم الدين وأنه ورجاله مكشـــوف عنهم الحجاب ، مالنا ومالهم .. اللبن جاءت به الحـــكومة ، توزعه الحكومة . حتى الدرويش قال هـــذا ، وأبوك ضربنى لاننى شتمت الدرويش وقلت انه يسأل كثيرا ؟ فكيف هـــذا وهو مكشوف عنه الحجاب ؟ . يا ابنى ارحم نفســـك .. الله يرحم من يعرف قدر نفسه ! .

النـــاس أدرى بحالهـــا لمـــاذا تدليهم على طريـــق الشر . الدرويش قال هذا ، أتريد أن تقتلنى مرة أخرى ؟؟ حرام !

.....

أنكره أهل الله وجانبه الفرح
صاحبه الشـــيطان وشق ضـــلوعه
غسل انقلب المتمرد فى مـــاء جهنم
سرق وكذب وعاشر قوادين وكهنـــة
جامع صبيانا ونســـاء من لحم وخيال
لعن طريق الرب وسكب الزيت وداس الكسوة
وأبحرملعونا فى كتب الثورة والرحلات ..
أضل الله مراكبـــه فى بحر الظلمـــات !

.....

فى يـــوم الجـــوع الأول مرض البحـــارة بالاســـقربوط فأكلوا الخروع وجـــذوع الشـــجر الصحراوى وبعضهم مات من الخـــوف ، وفى يوم الجوع الثـــانى أكلوا قربـــان الرب وسرقوا زيت التقدمـــة وتنفوا ذقن الشيخ من الغيظ وفى يوم الجوع الثالث سكن الموج وماتت كل رياح الدنيا وانفجر البركان الساكن منذ التفاحة ، فانعكســـت كل الآيات وظهرت آثار اللعنة .

وفى يوم الجوع الأكبر ذبحوا زنجيا صادوه من الشاطىء فارتعبت جنيات البحر ولعنتهم آلهة الحجر وربات الرحمة ، ولما وصلوا تابوا ورموا بعظام الزنجى الى البحر ولكن البحر انشق وظهرت للعين الحية ..

نزلوا للماء طلبا للتطهير فلم يغسلهم بحر الماء .

جن الربان ونتف اللحية وسلم لليأس شراعه . فى آخر أيام اللعنة شق الحوت الكافر بطن سفينتهم حتى الموت !

.....

ألقى الموج به وحيدا فوق الجزيرة الوارفة الظل ذات النخل القزمى والرمل الناعم الذى يعشق أطراف أنامله . أخذ يبحث عن رفاقه الذين انتشروا يصلحون الأرض الجرداء وقد أذله الجوع وهده الندم ! .

لم تبارح جثتها خياله .. حتى وهو معلق فوق صدر الموجة التى حملته الى الشاطىء خيل اليه انه يلمس جسدها حيا نابضا فحمد الله على نجاته .

مد ذراعيــه على طولهما ، وتشبث بصخور الشــاطىء وغاصت أصابعه فى الرمل الذى له طعم اللحم الغض ، لمحهــا تنظر اليه وأكد لنفسه أنه يرى فى عيونها نظرة لا توحى بأى معنى شرير أو وشايه .. انتظر أن تأخذ بيده ، لكنهــا بدت ميتة فى سرير عشيقها والدماء تنحدر نحوه كالموج الصخاب . !

.....

عندما عثر عليه الشيخ الطيب ذو اللحية التى فى لون اللبن الحليب والوجه الصبوح كتبت له حياة جديدة ، كما أكد له فى حنان .

ولمــا بكى لأنه نسى من أين جاء ربت الشيخ على كتفه وطلب منه أن يحكى له عنها ..

أحس براحة لذيذة وهو يحكى من بين دموعه قصتها معه منذ رحل الى المدينة العجيبة حتى موتهــا أمام ناظريه ، كانت تخرج اليه فى الليل رغم الحرس الطــائف بالمدينة ، لكى تطعمه أو تخفيــه أو تنقل رسائله السرية .

وعندما حلت سنوات القحط والهزيمــة ظلت على ايمانها وانطلقت تتغنى باسمه فى كل مكان وهى

تبحث عنه • ورفض أهله أن يدلوها على مكانه ، ولمـا حلفتهم بكل عزيز رفض أهلها السماح لها بذكر اسمه أو انصـلاة من أجله ! • اصدقاؤه اتهموهـا بخيانته والتجسس عليه ولكنها صعدت اليه الجبل رغم رصـاص الاعـداء وقاتلت معه وان كانت غير مقتنعة بأى سبب للقتال غير انها مريضة حبا ! •

احتضنه الشيخ الطيب ونصحه بالبكاء كما يشاء حتى يغسل الدمع غربته وندمه ، ويزيل ذنوبه ، ووعده بأن يغفر له كل خطاياه وقال له :

ـ لست وحيدا الآن فنحن معك • فقط استتر حتى يطهرك الاعتراف ، سنعد لك السفينة ونجهزها لك بكل ما ندر من ثروات وتحف وبضـائع •• وسنأتيك ببحارة أكثر قوة وفتوة ! •

سنوسع خطواتك ونعيد اليها الحياة ، وبفضلنا سوف تدرك اعداءك وستفنيهم ومثل طين الأسواق تدوسـهم ، وتسحقهـم كتراب قـدام الريح فقط لا تتوقف عن الحديث واحسانى للشـاطىء الآخر ولا تجعل ماء الجدول يلسنى •

••••••••••

غسل كلام الشيخ الأحزان فأحس ببعض القوة • وبالقدرة على تحريك لسانه وشفتيه •• وحمـله على كتفيـه وعبر به الجدول •• وهناك انتظر فى أدب أن يشكره ثم ينزل عن كتفيه وأن يحرر رقبته ، ولكن الشيخ لم يفعل : ظنه نائمـا فهزه هزا رقيقـا •• لكنـه لم يستجب •• بدأ الشـك يزحف مرة أخرى الى قلبه وحاول تذكر أين سمع صوته من قبل ، حاول أن يفك ساقيه عن رقبته ولكنـه أحس لهما ملمسا معدنيـا ، كاد يصرخ من الرعب • وأصابته الهستيريا وهو يستجمع قوته فى محاولة للتخلص من قبضة السيقان المعدنيـة ، لكن محاولاته لم تفلح ــ سـوى فى جعلها أشد صلابة وقوة حول رقبته •• بكى من الذل والقهر والعجز وقلة الحيلة •

••••••••••

أفاق على صـوت ضحكة ساخرة ماكرة فانتفض واقشعر بدنه عندما تعرف على مصـدرها • وفتح عيونه ليتأكد ، كانت رأس الأحدب تحملق فيه وقد كشرت عيناه عن ابتسامة مداهنة خبيثة ، وأمره أن يستعد للزيارة ! •

الصباح الذى تكلمت فيه الأوراق الرسمية

قال الأحدب مواسيا :

« يعرفون أنك ضعيف الجسم ولن تصمد ، لكن صمتك يقتلهم • سمعنا المـأمور يبكى بدموع حقيقية من الغيظ وهو يتحدث عنك فى التليفون ، رغم أنه كان يهدد بدفنك حيـا فى الصحراء • أقسم لك أن هـذا حدث ، بعضنا شاهـده من الكوة السرية التى صنعها زميلنا فى المكاتب لنشاهد ما يحدث عندهم ! نوع من التسلية •• صدقنى » ••

عاش حياته يثق بالبشر ويغفر لبعضهم دنـاءة الطبع ولآخرين الخسة التى يخلقها الفقر ، ويختلق المعـاذير للصـوص وحتى للقوادين وبائعى الوهم وللمحترفات لكنه أبدا لم يجد تبريرا يصلح لغفران الخيانـة •

ورفض أن يصدق الأحدب خوفا من وطأة
عذاب جديد .

لكنه مضى معه ، فقد كان الباب مفتوحا والأوامر صريحة . وضحكة الحارس التركى كانت مفعمة بالرثاء والسخرية ، فتجمع الأطفال وتسلق بعضهم السياج الحديدى يرقبونه فى صمت وحزن . ولمح فى عيونهم المريضة آثار دموع صديقه ولم ير حول أفواههم أى أثر للسخرية فأحس أن من واجبه أن يصدق مشاعر الأحدب والا فسوف يضعف وسيتمكنون منه فى غرفة التحقيق .

وحين لمح من بين حديد السياج طفلا غلبه البكاء يجاهد كى يدارى مشاعره ويمسح دموعه خائفا أن يلاحظه أحد الحراس ، امتلأ قلبه بالفرح ، واستطالت قامته رغم الألم الحاد فى نهاية سلسلته الفقرية .. وتدفق الشعر فى عروقه دافعا به الى تلك المساحة التى عاش يفضل دائما أن يوازن فيها بين كآبة الحقيقة وابتهاج الحلم .

.....

وشحنه هذا بقوة هائلة أخذ يسن عليها أسلحة صمته استعدادا لتبادل الطعنات مع ذى السترة الذهبية والشارب التترى الغاضب :

ما الذى أتى بك الى هنـــا ؟ .. من الذى أرســـلكم ؟ لحســـاب من تعملون ومن الذى دفع لكم ؟ كيـــف تجـــرؤون على تدنيس مقدســـاتنا بأفكاركم ؟ ألا تعرفون أن سلطاننا قادر على تحطيم كل معـــارض فما بالك بمن يعيشـــون على طعـــام الغرباء ؟ أيها الأحمق مواهبك تشفع لك فتشفع . أحلامك سهلة التحقيق فاطلب . لا تركب رأســـك واركب الفرصـــة .. والا .. اتق شر الحليم ؟ . ماذا .. ؟ ماذا قلت ؟

ظل مثبتا عينه الصامتة فى جوف عينيه الخابيتين المرهقتين من السهر والفسوق أو من ثقل العمامة ذات الطبقـــات . فازداد قلق المحقق ، وانتابه الاضطراب فأمرهم باشـــارة خفية أن يعدوه لتبادل الحديث أولا .

سحبوه على الأرض الى حجرة التجهيز على الفور ، وخلال الكوة السرية راقبه الأطفال وهو يرفض الاستجابة ، بل وابتسم لهم فقد كان يعرف الآن أنهم يراقبونه ، تشجع بعضهم وتماسك ولكن البعض الآخر فى الأركان يعض صخر الجدار مرتعبا بينما راح آخرون بلا أمل يقتسمون سيجارة رخيصة ملوثة .

أعادوه فأعاد الرجل ذو السترة الذهبية سؤاله ، رغم أنهم ناولوه التقرير السلبى عن مدى استجابته لوسائل الاعداد الحديثة ، والتى قررت أنها حالة (عدم قابلية فطرية للاعتراف) وتحتاج لجراحة استئصال عضوية • فتوجه الرجل بأسئلته الى الحارس المدنى المرافق :

ـ متى وصل الى شواطئنا ؟ ! •

.....

سافر فوق جناح الرخ الى حافة جزر المرجان •

يحلم أن يتسرغ فرحا فوق العشب الأخضر فى
آخر أيام العالم •
يتمنى أن يغتسل بكل مياه الأنهار •
يشم جميع الأزهار ••
ويقرأ كتب الحكمة والحب ويسمع كل الأشعار •
فمضى يأكل خبز الذرة الأسود يصعد سرا خيل
العمدة •
ويبول على سلم قصر الوالى •

ويطـارد نحـل العســل البرى •

ويجرى تحت الأمطار يشم زهور البرسيم •

ويلاعب أطفـال الفقراء •

يقضى الليـل بأكواخ منفيـة •

يشرب لبن المـاعز فوق تلال فلسطين •

يصلى فى معبد (بوذا) عيد الفصح •

وفى الكعبة يغفو ليطالع وجه رسول الله •

وفى دلفى والأديرة الأولى •

يعانق (ايزيس) ويتلو كتب (الخضر) •

يشرب خمرة (باخـوس) •

يضاجع فى ركن الزنزانة كل نساء العالم ! •

••••••••••

وحين رآهـا أول مرة •

كشف العـالم عن أول أسراره •

فأبصر كيف تدور الأفـلاك •

وكيف يعيش الشعب الرعب ويقتل خوفا •

أو جوعـا أو خسـفا •

انكشف الغيب فقرأ سطور المستقبل •

حرفـا حرفـا • ! •

.....

قص رسول الملك عليهم كيف عثروا عليه ضعيفا ، خائفا ، جائعا ، لا يقوى على السير عند البئر ، يوم ذهبوا لتلقيح خيل السلطان ــ أطال الله بقاءه •

أخذوه الى القصر ونظفوا جسـده ، وطهروا جراحـه ، وحلقوا له شعره وشاربه ! وأطعموه أفخر الطعـام وسـقوه ألذ الشراب وجعلوه يدخل المدينـة دخول الفـاتحين بعد أن سلموا لوالده حسب القواعد كل ما يخصه من ملابس ونقود باستمارة صحيحة •

ووعدوه برضاء السلطان وعفوه ، وسماحه بتجهيز سفينة ذات أربعين شراعا تعود به الى بلاده محملا بالهدايا السلطانية ومودعا بالاهازيج الشعبية ، لكنه ليس وش نعمة ! فقد رفض بغباء وعناد••أن يدلنا على مكان رفاقه أو يذكر أسماءهم وأعلن

العصيان وانطلق يصرخ فى الشوارع الرئيسية المزدحمة بالأجانب والسائحين ، مطلقا شعارات بذيئة معادية ويعلق صحفا حائطية فاسقة على جدران المدارس والمساجد • وأحدث من الضجيج والصخب ما أزعج أفراس البحر فرفضت أن تصعد من البحر كعادتها كل عام لتضاجع خيل السلطان ليعم الخير ويجد الفقراء ما يأكلون •• وسمع السلطان اسمه يتردد على لسان الخلق بلا احترام ، بل وفى قلة أدب ، فحط عليه الهم واكتأب ، ولم يعد يضحك كالعادة فى وجه وزير الدولة فقطع الخلف • وأخذ يهدد بالويل جميع الغرباء والشعراء وحراس الليل وسياس الخيل وأراذل الناس ووجهاءهم • !

حاول الرجل ذو السترة الذهبية جاهدا أن يظل بعد كل ما سمع محافظا على الحياد الجدير بقاضى الشرع وحامى ناموس الكون فأخذ ينضم قلم الاحكام فى عصبية وقلق ثم قال :

ـ هل كانت كل تلك الأوراق هنالك معه ؟ ••

رد المخبر مؤكدا :

ـ بالتأكيد نعم ••• ولكن •••

لم يعجب هذا القاضى ووجدها تعرقل فكرته فصاح غاضبا:

ـ ولكن ••• لماذا ؟ •••

فأخذ المخبر المتنرس يشرح فكرته فى هدوء الواثق :

ــ يوم عثرنا عليه بعد طول بحث لم يكن معه شيء ، وهذا أمر طبيعى معهم ، فلو أنه كان يحمل شيئا لما أثار شك الحراس ، لكن مثله صاحب خبرة قديمة يستطيع أن يخفى المنشورات السرية تحت جلده ، هكذا عرفناهم دائما أنهم يتقنون علم الكيمياء والفلك ويتحدثون مع السحب ونباتات الصبار ، لكن هذا لا ينفع معنا ، نحن أمكر منهم فنحن نعمل حسابهم منذ سنين طويلة .. قرون طويلة يا سيدى نعرف عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم ، نحن نراقبه منذ ميلاده ــ مثل غيره ــ يوم مولده قتل أمه ، وعندما بلغ الحلم تنكر لأبيه وعندما عرف القراءة أنكر دينه . ولما أحب ، تمرغ فى كنف الشيطان وبدل كلمات الله وعبد النسوة ، وان استطاع فلينكر ، لكنه لا يجرؤ فتقارير الأمن وصور البصاصين وشرائط القمر الصناعى تؤكد أى يقين تتبع ــ الشك فى ناموسنا ضياع والتردد استسلام للوسواس الخناس ولذلك من أجل اليقين نراقب الجميع لاحقاق الحق .. فكم من الاعداء ينتظرون الصدفة لأن الصدفة على طول التاريخ كانت أعدى أعداء الدولة ومصرع السلاطين .. فاطمئن يا سيدى .. نحن لا نترك شيئا للصدفة أو للتخمين ان أول رجل قابلناه

فى القرية أخبرنا باسمه .. ورائحة الزيت المحروق قادتنا الى بيته . ورأينا ما كتبه المخلصـــون على الجدران نكاية فيه .. يا للعار ، سمعنا قصصا يخجل منها اللوطى . فضـــائح مؤكدة ، لا يستطيع حتى انكارها .. أنظر .. انه يبتسم موافقا ويلتزم الصمت ظنـــا منه أنه سيستعصى على التجهيز .. بينمـــا كان لا يخجل من معاشرة العجائز لأن هذا أحد مبادئهم . كما أكد لنا العمـــدة وهو يوزع علينا مصـــل القوة الذى يعتبرونه ســـرا ! ...

وشاركه القـــاضى ضحـــكته طربا ، وهو يناوله نصيبه ، ويرقب معه فى شبق جثتهـــا المسجاة بالمشرحة عارية تماما .. كان الجسد الغض يبدو دافئا بالحياة ، فأشار القاضى للمخبر اشارة بذيئة اهتز لها الواقفون اهتزازة دنيئة وضحكوا طربا ، وهم يفحصونها باهتمام ! .

وسمعت القهقهات العابثة فى الفنـــاء . فتجمع الأطفـــال مذعورين واحتموا بالزنازين . وجمع الأحدب أشياءه ولفها فى عجلة ثم دسها فى مكانها الأمين ، خوفا من حالة الطوارىء التى يعرف بغريزته أنها ستبدأ بحثا عن الممنوعات وانتقاما لصمته الحجرى .

.....

سرت الضحكات وآهـات الرعب عبر الممرات المسقوفة بالطوب الأحمر والملطخة بزيت المشـاعل وهباب النار ودماء الأسرى • واخترقت جـدران القلعة الى الحوارى الضيقة المجـاورة ؛ وظل الصنم هو الآخر صامتا يرقب ما يجرى كأنه وثنى قديم دون أن يثير غيظ أحد ! بينما اندفعت جمـوع الذعر والعوام ترقص فرحا فى ميادين المدينة ؛ وهى تصرخ بكلمات فاضحة طالبة الموت لكل من يقرأ كتبـا ، بينمـا رفعت فوق أسنة الرمـاح وعصى المكانس أعضاء تناسلية ممزقة ودامية ••

وقاد الجند ــ راكبون وراجلون ــ جماعات السوقة وهم يرفعون فوق أسنة السـيوف رؤوس فتيات نوبيات وروميات ومصريات عذارى ، مقطوعة الآذان يتصـاعد منها بخار الدم الحار ؛ وتنطلق عيونهـا ــ التى لم يغمضها أحد ــ بنظرة الرعب الأخيرة اليائسـة ؛ التى تزرعها المفاجأة فى عيون بريئة • وأطل السـلطان المتمتع بحب الشعب فزغردت النسوة المجتمعات فوق أسطح المنازل • ولمـا تليت برقيات المبايعـة والتأييد نثرن الورد وماء الزهر

أمـــام موكبـــه ؛ فمضى يشـــق الجموع بصعوبة ، فى جبـــة ســـوداء ذات (طرز زركش) ووشـــاح أخضر وسيف يمانى ؛ وسار بين يديه قائد عسكره الجديد الذى حل محـــل وزيره المقطوع الخـــلف وهو يحمل القبـــة منحنيا ، يمسح الطريق للموكب الذى مر بخزانة شمايل والعرقانة حيث ذبح الأطفال وسط عاصفـــة الرعب ؛ حتى وصـــلوا الى باب سر القصر الكبير ليجلس مؤيدا بنصر الله والشعب على كرسى السلطنة •

والى كل جهات البر انطلق المنادون والمطبلون يبشرون بالأمـــان لكل انسان •• فضج الخـــلق فى الأسواق والمساجد بالدعاء • وفرق السلطان الهبات والعطايا على عسكره ورجال حربه ، الذين نصروه وساعدوه على قطع دابر الفتنة وانقـــاذ عبـــاد الله المؤمنين وأميرهم ودينهم من الكفرة والملاحـــدة ومعاشرى أخواتهم فى الحرام • وأعلن السلطان أنه اذا ما استقر الأمر له فانه ســـوف يجعل من أسوان جنة ويخلط ماء النيل بالعنبر ويصـــدر عفوا شاملا عن كل من كان السلطان السالف قد سجنهم ظلما ،

ووعد أيضا بتطييب خاطرهم وبأن يخلع عليهم الخلع الشاهانيـــة •

وعلى الفور تم القـــاء جثث العذارى والفتيان المـــارقين الى انكلاب تحت المقطم ، فظلت أصوات القضم والقرقشة مختلطة بصرخات ألم وآهات موت تسمع خلف الجيوشى ! وكان العسكر قد عـــادوا برؤوس الفتنة ، فصلبوهم فى الرميلة جماعـــة بعد جماعة بعد تجهيزهم بالخوازيق على دقات الطبـــل وألاعيب المحبظين والحواة الذين ظلوا يرقصـــون فى المسافة بين الخوازيق وباب القصر حتى المساء •

ثم انطلقوا مع الجند يقطعون الأشجار ويهـــدمون البيوت ويخربون بساتين أعداء الســـلطان بحثا عن المنشـــورات والســـــلاح وخوفـــا من التجـــاء المتمردين اليها •

ومات يومها خلق كثير تحت الانقـــاض وتحت سنابك الخيل بلا عدد •

••••••••••

ولكن ما أن حل الليل وأذن المؤذن لصلاة العشاء ؛ حتى هبت على المدينة رياح سوداء لها رائحة نتنة ؛ ففزع الناس وخرجوا يدعون الله ويطلبون الرحمة • وفاض الرعب فاستجاروا بالسلطان وحاصروا القصر ؛ ولكن الحراس وجدوه مخنوقا عاريا فى فراشه ؛ فساد الذعر واضطرب الخلق كثيرا وقرع الطبل ودقت الكؤوسات •

وأدخلت النسوة الناجيات أطفالهن الناجين الى البيوت التى بقيت دون هدم وأغلقت أبواب الحوارى التى لم تحرق ••

وأفتى شيخ الجامع أنها علامات الساعة ؛ فتاب الناس على يديه آملين فى عفو الله وغفرانه وهو الغفور الرحيم •

وحل الصمت والترقب ، وساد سكون مريب شامل الا من آهات يائسة لا تكاد تبين •• !

••••••••••

وفى منتصف الليل بالضبط ؛ صرخت امرأة مصرية صرخة مرعبة ؛ سمعها الناس فى جيزة حلوان

كشفت عن بطن ابنها المنتفخة فزعقت من الهول ـ الطـاعون .. !

ارتعش قلب الرجل فى السترة الذهبية ساعتها • ونظر الى أسيره الصامت فى حقد وهو يعجب لبقائه حيا حتى الآن .. فأسرع يغلق دفاتره وأدواته وصاح فى الحارس غاضبا ، وأمره بالابتعاد بذلك الملعون وعزله فى زنزانة التأديب • حتى تنكشف الغمـة وتتضح الأمور • ويتبين الخيط الأسـود من الخيط الأبيض ويعرف الخلق الى أين ستمضى الدنيا فى هذه الأيـام الصعبة ، فهو بالتأكيد لن يفعل شيئا حتى تصـل اليه الأوامر الجديـدة ! •

المساء الذى قاربت فيه الرحلة على الانتهاء

أحس قبضة الحارس تخف عن كاهله ، لكن وقتا طويلا مضى قبل أن يكتشف أنه يسير وحده فى الدهليز الخـالى • وسمع لوقع خطواته رنينا ذا صدى معدنى مخيف •

توقف يتسمع • وتأكد أن أحدا لا يتبعه بالفعل ، فكف الرنين ومات الصـدى ولأول مرة منذ جاء الى هـذا المكان أحس الخوف ينهش قلبه ككلب وحشى • خوف غريب بعثـه الفراغ المريب الذى يحيط به ، لقد كان وجود الآخرين يعطيه الأمان الذى أعطاه له صوت الآلة الكاتبة ، عندما سمعها تكتب حروف اسمه فى الدفاتر الرسمية ليلة وصوله •

طارده الخوف • فانطلق يجرى مضطربا ، وقد تسارعت دقات قلبه وانتفض نبض الدم فى عروق رقبته وأذنيه • وأحس باغماء خفيف فحـاول الاستناد الى الحائط ولكنه فزع لمنظر

الدماء والزيت الجاف المحترق والتـــاريخ الراكد المتراكم فوق الحجـــارة • فتناســـك وظل يجرى وأقدامه تنغرز فى خوذات مهشمة ، وخنـــاجر يسيل عليها دم حـــار حى ، وملابس ممزقة وأشلاء بشرية مهروسة •

عشيت عيونه عندما غمره النور المفاجىء فى نهاية الدهليز ، فاستند الى الجـــدار مضطرا ، حتى تعود على الرؤية فأجـــال بصره فى الحوش ، كان ثمـــة بعض الرهبـــان فى ثياب سوداء يذهبون ويجيئون وهم يتناقشون فى عصبية ، وقد عقدت خطورة الأمر ســـنوات العمر فوق جبينهم وجعلتهم لا يهتمون بجثـــة الفتاة المذبوحة المسجاة على الصندوق •

لكن رجـــلا عاريـــا خـــرج من بئر المـــازوت وهو يلوح بذراعيه طالبا غفران المولى ـــ فبدا كمن يحاول اخافة الأطفال أو مشاغبة المعتوهين ـــ اتجه نحوها وأخذ يحتضنها وهو يبكى بكاء مرا ، وهو يهدد ويتوعد • وعندما انتهى من تلطيخها تماما بالمـــازوت العالق بجسمه أشعل فيها النار وهو يتغنى بالنشيد القومى ويدور حولها فى خطى عسكرية •

خاف أن يلاحظ رجل المـــازوت أن ثمة تشابها بينه وبينها فانطلق ناحيـــة العنبر ، لكنه لم يسمع صـــوت الأطفال يملأه بالحياة والمرح كالعادة فأحس بسكين تنغرز فى لحم صـــدره

عندما مرت بخاطره الفكرة ـ هل يمكن أن يكونوا قد أغرقوهم فى المازوت فى غفلة من الرهبان المتجادلين ؟ لكنه استعاد هدوءه عندما لاحظ أنه ليس هناك أى أثر لحرائق أو وقود . فتح الزنزانة الأولى والثانية فلم يجد أحدا ولم يتبين أى آثار لعنف فهدأ خوفه قليلا ، فمع أنه كان يكره حتى الموت عيونهم اللزجة وأسنانهم التى سودها الدخان الا أنه كان يأنس لضجيجهم حول زنزانته ، ويتزود بنظرات التعاطف التى كانوا يودعونه بها كلما سحبوه الى غرفة التجهيز أو أيقظوه فى منتصف الليالى للتحقيق معه ، وأحس بشوق جارف لرؤية الأعور ، أو الأحدب أو ... حتى الحارس الذى ربما احترقت زوجته الزنا لأنه لم يستطع توفير السجائر له أثناء نوبة حراسته ! .

جلس على السلم ليستريح قليلا من عناء الفكرة التى راودته والتى شرخت قلبه خوفا على الأطفال . وفكر أن ينادى عليهم لانقاذه من وحدته عندما لمح أحد الأقدام الغضة تتدلى من أحد الأبواب فى الدور العلوى ، فانتابه الفزع وتحامل على نفسه ، وصعد السلم مستندا الى السياج حتى وصل الى الباب، وحاول دفعه ، لكن الباب رفض الاستجابة فمد يده ليزيح ما خلفه فغاصت يده فى كومة مهولة طرية من الاشلاء والدماء ،

لقد ذبحوهم جميعا ولم يجدوا وقتا لحرقهم ، أخرج يده من بين أسنانه بصعوبة وجمد الدم فى عروق عينيه المفتوحتين رعباء وتحشرجت فى حنجرته صيحة ألم بربرية انطلق فى اثرها يجرى صارخا مثل كلب محاصر •

••••••••••

استقبلته الشوارع الخالية بلا ترحيب مثلمـــا فعلت قريته فى زمن لاحق لكنه أخذ يسنى نفسه بلقاء بشر آخرين اذا ما ابتعد عن مركز الأحـــداث فظل يجـــرى ••

وهدأ قليلا عندما أخذ يؤكد لنفســـه أنه على وشك النجاة ، فقط عليه الوصـــول الى الشاطىء • وعندها سوف يحرق ثيابه لتراه أى سفينة تأخذه الى بلاده وعليه الآن أن يجد الطريق الى البحر بنفســـه وان الفرصـــة لن تتكرر والقـــاضى لن يصـــدر أية أوامر لملاحقته لأن الأوامر الجديدة لم تصـــل اليه بعد • والحرس مشغولون بالقتـــال مع الحـــرس • أو بذبح الأطفال والنساء ••

والهوجة قد تستمر على الأقل يوما أو يومين ••

يمكن أن ينتاب الى الأبد من غرفة التجهيز •

ولمح شاطىء الأمان يقترب بشكل مؤكد • فارتاحت نفسه لأن عذابه لم يكن سدى • وسيغفر له والده وأمه ووالدها وأهل قريته كلهم عندما يعرفون الى أى حد احتمل حتى لا يشى بهم • وكيف واجه دون أن يفكر لحظة فى خيانة أحد منهم أو ازدراء من ضعفوا ، حتى صاحب دكان السجائر والجيران الذين نهشوا لحمه ، ودلوا أعداءه على مكانه ، انه يغفر لهم جميعا لانه يحبهم •

وتأكد أن حياته لم تكن عبثا فوصوله الى الشاطىء يمكن أن يكون مبررا كافيا لحياته السابقة بل أن حياته سوف تتأكد ضرورتها عندما يعود اليهم ليبدأ معهم من جديد ! ••

سوف يتأكد من توزيع لبن المعونة على العجائز رغم أنف العمدة والطبيب ، ولن يستمع لاعتراضات أمه وعتابها المشوب بالأنانية وسيقنعها أن رحلته ومعاناته لم تكن من أجل أن يسمح لاعدائه بالاستيلاء على مؤونتهم ، وسوف يعدها بتعويضها عن حرمانها الطويل بأن يعيد لوالده العجوز بقرته واحترامه •

وسيؤكد له أن عذابه ــ رغم عتابه الجارح ــ كان من أجل تحقيق أهدافه البسيطة •

وابتسم عندما تخيل كيف ستستقبله المرأة ذات الفخذين الهائلين عندما سيدخل شارعهم القديم • وكيف ستبتسم له ثم تسبقه الى الداخل ، وكيف سيتبعها لترجوه فى دلال أن يستلقى على البرسيم الأخضر الطرى تحت البقرة مثل (البو) لتدر كل ما فى ضرعها من لبن •

وأقسم بينه وبين نفسه أنه سوف ينفى بوعده ليتزوج البنت ذات الضفائر المبتلة لكى ينقذها من قسوة أمها وجنون أبيها ، وسيفعل كل ما فى وسعه كى يمنع زوجة السباعى من (سفخ) كلبها بالحجارة عندما يجرى نحوه متعرفا عليه •

وسيشارك صاحبه القديم فى اعداد المعجنة وضرب الطوب وسيشوى لأولاده الذرة فى عين (القصينة) وسينافسه فى انجاب الأطفال الضاحكى العيون ويعاونه فى ابعاد خطر الحرس التركى والسجائر عنهم •

••••••••••

تعثر فى أحد الأحجار الناتئة فتنبه الى أنه ما زال يجرى فى الشارع المرصوف بالحجارة السوداء ، وأن لوقع أقدامه ذلك الرنين لا يزال • وأن الصدى الرهيب ما انفك يطارده فأحس باحباط هائل ، وانسحب الى حارة جانبية كى يلتقط أنفاسه وليتبين موقفه جيدا وليبحث عن حماية ما •••

كانت الحارة التى عرج عليها مألوفة فابتهج قلبه •

كانت تموج بالحركة والضياء وأصوات الناس فاحتضن فراغها بحب واندفع يملأ منها صدره وعينيه •

كانت الداية تجلس على حجر رشيد تبيع (فول نابت) وتنهتر طفلا سرق حبتين . وتفاصل رجلا يحاول أن يسرق منها مليما •

وقف على رأسها فالتفتت اليه مذعورة ومدت يدها ، ظنها تريد مصافحته لكنها أسقطت فى كفه شلنا فشكرها وتركها ونظرة شك وغيظ تلاحقه ، ودعوة صامتة تلعنه هو وأمثاله من الجبارين وآكلى الحرام •

لمح المرأة ذات الفخذين تقف أمام بيت ذى عتبة عالية ، واستطاع أن يتعرف على ملامحها بالرغم من الصبغة الناجرة

التى تغطى وجهها وشفتيها .. فقد كانت تكشف عمدا عن فخذها الوردى وهى تنفث دخانا كريها كاد أن يخنقه . عندما اقترب لم تسأله عن حاله ولكنها سألته عن مقدار ما معه من دراهم . ذكرها بزوجها فضحكت فى عهر . لمح لها بيوم البقرة والبرسيم فاشمأزت ، واستدعت رجلا جهما تحيط بذراعيه أساور حديدية فآثر السلامة وانطلق الى الجهة الأخرى حيث كان الحارس التركى والقاضى ذو الستر الذهبية ، يقطعان ويبيعان لحما موشوما برسوم غريبة . فانطلق مبتعدا يجرى وسط زحام الخلق وقد امتدت على جانبيه الى مدى البصر دكاكين ملونة ومضيئة علقت على واجهاتها نماذج طائرات شحن من البلاستيك وأكياس (أنفورا) وصورة سلطان جديد يرفع صولجان ذهبيا .

.....

سمع صوت ابنة عمه ذات الصدر البرى تناديه فرق قلبه ، والتفت اليها فرحا ولكنها لم تعطه أى فرصة كعادتها اذ أطبقت على كفه وجذبته نحو مدود الأغنام تحت النخلة الحيانية ، ولكنها لم تكن تلهث هذه المرة اذ أجلسته فى حدة ، وأخذت تحدثه بكل جدية ، حكت له كل ما جرى لأهله فى غيابه ، وأكدت أن عليه أن يعود من حيث أتى فليس هناك الآن

من هو على استعداد للتستر عليه . علاوة على أن رجال السلطان الجديد يحاصرون القرية والغزب المجاورة و (جابوا عاليها واطيها) بعد أن أودعوا والده الموريستان لأنه منذ رحل لا يكف عن الحديث عن رحلته وقرب عودته •

لم يصدق ما يسمع ولكنها ذكرته بحبها له وأنها لم تكن تطلب منه الابتعاد أكثر مما فعل الا (للشديد القوى) ولو علم أبوها بما فعلت لذبحها فالأحوال صعبة وكل واحد مطالب الآن باظهار ولائه بشكل ما •

لم يجد ما يقوله فاعتذرت بضرورة ألا يراها أحد معه ، ودلته الى طريق غير مأهول يمكن أن يصل به الى حافة الصحراء وهناك قد يعثر على قافلة تجار أو عصابة مطاريد يوصلونه الى الشاطىء ؛ وطلبت منه أن يسرع ؛ فالكل مشغول بالاستعداد لحفل التتويج السلطانى • وقبل أن يرد •• قبلته واختفت وسط جيوش الباعة الجائلين ومناديى السيارات ، ولاعبى الورق ، والحواة الذين أحاطوا به من كل جانب ، وقد أثارتهم ملابسه الغريبة ، والتى تبدو كملابس سائح من بلاد متخلفة غنية ؛ لكنهم عندما عرفوا بافلاسه سبوه وسبوا أمه وطلبوا منه أن يذهب ليقتل نفسه غرقا فى المجارى •

لم يكن فى خطتـــه أن يستنجد بأحد الحراس ولكن عدم وجود حرس من أى نوع ، بدا له أمرا غريبا . فهو لم يعرف أن أوامر مشـــددة أصـــدرها السلطان الجديد قضت بعدم نزول الفرق العسكرية الى الأسواق تجنبا لتحدى مشـــاعر العامة ، والاستعاضة عنهم بآخرين من نوعهم يرتدون الملابس المدنيـــة ويمارسون كافة أعمال الناس .

لو أن أمه قامت من (طربتها) ، ولو أن والده عـــاد كما كان يطعم البقرة فى هدوء ، أو لو أنه سمع بأذنيه حكم البراءة والسماح له بالعودة الى قريته ، لمـــا رقص قلبه سرورا مثلمـــا رقص .. ساعة خرج عليه الأحدب من وسط الزحام فاتحـــا ذراعيه فى ترحاب وحب .

احتضن صديقه وسار معه وقد جاشت مشاعره فلم يتمكن من النطق بحرف واحد ، لكنهما تبادلا كثيرا من النظرات ذات المعنى ، وتبادلا الضغط على الأذرع فى ود والربت على الظهر والخدود فى حنان .

كان الأحـــدب نظيف الثياب بشـــكل ملحوظ ، ويدخن سيجارة أمريكية . ولمـــا سأله عن الأحوال وكيف نجـــا من المذبحة وكيف سارت معه الأمور ، طمأنه الأحدب ببساطة قائلا

أنه وجد عملا مربحا مربحا وأنه لن يلبث أن يشترى عربة يحولها الى تاكسى يعمل عليه بنفسه •

تمنى له كل توفيق وطلب منه أن يساعده على الخروج الى الصحراء حتى يجد الطريق الآمن الى شاطىء البحر لانه لا يستطيع التمييز بين الناس والشرطة ويخشى أن يطلب أحد منه أوراقه فيكشف أمره • أو يوقعه سوء حظه فى يد الحارس الذى تسبب فى احتراف زوجته الدعارة بسبب قلة سجائره وهداياه • ضحك الأحدب وأخبره أن الحارس نفسه قد قتل لاهماله فى حراسته • ثم وعده أن يسهل له أمر خروجه من البلاد فهو يعرف أناسا ذوى نفوذ • وعلى الفور انطلق معه وهو يؤكد له أن رحلته قد قاربت على الانتهاء وأنه سوف يظل يذكر صداقته مؤكدا أن ابن الحرام وحده ــ هو الذى ينسى العشرة وينكر العيش والملح والسجائر الملوثة •

ضحك من قلبه استجابة لضحكة الأحدب ومضى معه واثقا فى كل شىء •

••••••••••

عبر به الأحدب السوق مختفيا به ، مفسحا الطريق أمامه ، مبعدا عنه المتسولين والمخبرين وذوى العاهات ، وسقاه شرابا

ملونا ، واخترق معه عـددا من الدروب الجانبيـة والحوارى الضيقة حتى وجدا نفسيهما أمام أحد الأبواب . ترقف الأحدب وأخذ هو يتأمل ذلك الباب الذى خيل اليه أنه قد رآه من قبل ، ولمـا التفت الى الأحدب متسائلا ، وجده يكشر عن ابتسامة خجلى وأسنان مشوهة وهو يدعوه الى الدخول فى أدب .

وانكسر شىء ما بداخله وهو ينظر اليه فى عتاب ، بينما وقف الآخر أمامه ساكنا وعندما ثبت عيونه المتسائلة فى عينيه لم يقو الأحدب على المواجهة فنظر الى الأرض والنوم ينهش قلبه والخزى يلف حدبته كهالة القديسين الخونة ، وأخذ يثرثر بلا انقطاع محـاولا التخفيف عنه ومبررا فعلتـه بالانخـراط فى البكاء ...

قال (عفان) لـ (بلوقيا) ان الذين يتركون النـدم يراودهم على ارادتهم لا يصلحون للمهـام الكبيرة ، ان ملكة الحيات حبيسة قفصها الآن ونائمة بفعل المخـدر وبعيدة عن أرضها وناسها ، ولكنهـا عندما تستيقظ ستعرف أنها تقوم بمهمـة تاريخيـة عظيمة ، لقد أخرجت جدتها (آدم) من الجنة ودفعته لارتكاب أول خطيئة ولكنهـا ستكفر عن ذلك وتهبنا ماء الحياة ، ستعيدنا الى الجنة وسأقف على حافـة

الزمن أتحدى الموت والفناء .. ان كنت متعبا ابك ، أرح نفسك ، ان قليـــلا من البكاء يصـــلح النفوس المتعبة ، ولكن يجب أن تعرف أنك لم تفعل ما يخجل الى هذه الدرجة ، ان فعلتنا يبررها ما ستجنيه البشرية بسببها ، وغدا نطلق سراحها بعد أن تدلنا على العشب السحرى لتعود الى أهلهـــا وقطيعها ومملكتها كما كانت ولكن العشب سيحملنا عبر البحار السبعة الى هيكل (سليمان) حيث الخاتم الذى سنصل بقوته الى ينبوع ماء الحياة .

.....

يومها سوف تتبين أن الموت والقتل يعتبر ثمنا بخسا لمـــا سنحصل عليه ســـويا ، العالم تغير يا صديقى ولم يعد الخط المستقيم هو أقصر الطرق الى الهدف ، ان فعلتنا سوف تحقن دماء كثيرة وتوفر سنوات طويلة من الجوع والسجون والموت . وستفهم الأجيال القادمة عظمـــة فعلتنا حين يبررها انتصارنا الأخـــير ! .

.....

لمـــا أفاقت ملكة الحيـــات وتعرفت على موقفهـــا فزعت وأخذت تدور فى قفصها بعد زوال أثر الخمر واللبن المسكر ،

وأخذت تصرخ وتتأوه فى انكار عندما تعرفت على (حاسب كريم الدين) ؛ فانطلقت تجلده بكل سياط العالم غير ملتفتة الى عيونه المتنخة بدموع الندم :

ـ سوف تندم ندما لا يهدأ .. الخيانة لا يبررها شيء يا (حاسب) حتى ماء الخلود . فلا تصدق كل ما يقال يا فتى وتذكر أننى أنقذتك من أيدى أصحابك . أخرجتك من جوف الجب عندما خدعوك ؛ لقد أعطيتهم كل شيء فأخذوه بلا خجل وألقوا بك فى غيابة الجب ولولاى لكنت عظما وترابا والآن تسلمنى يا (حاسب) ؟ ! .

استطاع أن يرد فى وهن منتزعا حروف الكلمات من تحت ركام الاحقاب والحروب والمجاعات والأسفار الطويلة وعذاب الخيانات الأزلية :

ـ ليس هذا الا لوقت قصير انها مهمة موقوتة .

ضحكت ملكة الحيات ساخرة :

ـ قالها بلوقيا من قبل يا حاسب ، انها دائما مهمة موقوتة .

كنت أعرف أن بلوقيـــا سوف يطلق سراحى ، اذ لا يبقى معتقل الى الأبد . ستنتحر قنصى بعد أن أدلك على العشـــب السحرى ولكن كيف ستطلق سراح نفسك ؟ . كيف ستفتح قفصك ؟ انى أتنبأ..!

سيموت صـــديقك محترقا بالنـــار يموت .. وسيعصر قلبـــك حتى الموت فقـــدان الحب وثلج الوحدة ، انى أتنبأ .... !

أجهش هو الآخر فى البكاء وهو يقول للأحـــدب ولقائد الحرس الذى ظهر مصدرا أوامره لرجاله :

ـــ حتى ماء الحياة لا يبرر الخيانة ! ..

وحاول الأحدب أن يبتعد عن طريق الحـــرس ولكنهم لم يتنبهوا اليه ، أو هـــكذا بدا الأمر عندما وقع تحت أقدامهم المهرولة المندفعة ، فصرخ وحاول أن ينبههم لحقيقة أمره ولكن أحدا لم يلتفت اليه ، اذ ما قيمة جثة جديدة موالية وقد سحقوا آلافا مثلها منذ الصباح الباكر ؟ ! .

وزحفت ملايين الفئران والحشرات على جســـد الأحدب المهروس تحت أقـــدام الحرس ، بينمـــا تقدم منه قائـــدهم ذو الوجه الثعلبى :

ـ ها قد عدت مرة أخرى ، ألم أقل لك ان كل شيء يمكن أن يضيع فيما عدا الأوراق الرسمية • وكم ابتلعت كثبان الرمل المتحرك أمما وقبائل ! حاول أن تنقذ نفسك ، كل السفن ستغرق • وسط البحر المجنون كن أنت العاقل •

تحسس خلف جدار الصمت فانقض عليه حارس حليق الرأس بلا شوارب واقتاده من قفاه الى قاض فى سترة موشاة لكن هذا ما أن رآه حتى صاح بهم فزعا :

ـ لا تحضروه الى هنا الا بعد تجهيزه تماما ، أنا لا أريد أن أكرر أخطاء الأحمق الذى كان يتعامل معهم قبلى •

عندما سحبوه على الأرض نحو غرفة التجهيز أحاط به جمع من الأطفال الجدد المشوهى الأسنان ذوى العيون التى يسيل منها الصديد ، فتطلع اليهم مستنجدا •• لكنه ابتلع ابتسامته ••

فلم يكن على وجوههم أى أثر للتعاطف •

وها هو الآن بعد أن حاولوا هدم جدار الصمت الذى احتمى وراءه بلا فائدة ــ يرقد فوق الرمال يحاول جاهدا اقناع نفسه • ان كل ما مر به حدث فى عصر آخر •

لكن الأيام تسربت من بين أصابعه الدامية ولم يستطع استرجاع حديث القبرة أو مشهد البقرة ، فقد كان الجلاد طويلا كالنخلة له أذرع كالصوارى وأسنان كالمدارى ــ واقفا يسد الأفق بصدره الأملس الصخرى يخيف الطيور ويجعل السحب تعبر الى أوطان أخرى • ولم يعد هناك مفر •• العصر أصبح عصرا آخر ، والناس لم يعودوا كما عرفهم قديما ، ولابد أن تحمل رأسه الى السلطان • ولن يعرف أحد حقيقة ما حدث له أبدا •• وعليه أن يستسلم وأن يغفر للجميع حتى للأحذية • فان أحدا لم يسلمه وهو وحده المسئول ــ هو الذى أراد وكان

له ما أراد تماما ـ الذين أحبهم لم يريدوا حبه والذين وهبهم عمره سخروا منه ! •

لكن الأحدب كان يبكى وابنة عمه كانت صادقة فى جزعها عليه ؟ • نعم • !

رأسه تكاد أن تنفجر وهو لا يريد أن يلاحظ أحـد من رفاقه المنتشرين على وجه الصحراء لحظة ضعف عارضـة تبدو عليه •• أكثرهم لن يفهم أسبابا ، وبعضهم سوف يؤكد أنه كان يتنبأ له منذ البداية بما عرفه عنه الآن فقط •

ان موته الآن لن يضير أحدا ، وعليه وحده تقع مسئولية جعله ذا مغزى لأطفاله ولمن سـوف يأتى بعده • تذكرت كيف أراحت جذور البوص ذلك الحـلاق من القلق وأخفته من الفزع ان هو أفشى سر مولاه السلطان الذى كانت له أذنى حمار •

أخذ يزحف فى بطء وهو يبذل جهدا خارقا بسبب جراح جسده الخـارج توا من غرفة التجهيز وهو يدير عينيه بحثـا عن بعض شجيرات البوص ليختفى الى جوارها ثم يهمس اليها بما يملأ صدره مثلما فعل الحلاق •

وخيل اليه أن كل ما مضى من حياته يساوى تلك اللحظة

التى عثر فيها على دغل بوص خلف عين المـاء يصلح بشـكل كاف مبررا لفرحته الأخيرة •

كاد الحـلاق يموت بالسكتة القلبية من ثقل السر الذى يركز كالحديد المصهور على صـدره لولا أن همس به للجذور والطين الصامت •

وصحيح أنه قتل بعدها بحد السيف وقتل معه عدد كبير من الصبية الذين صنعوا صفافير من ذلك البوص أذاعت السر عندما نفخوا فيها • ولكن ماذا يساوى ذلك وقد عرف النـاس أيامها وتيقنوا أن لسلطانهم أذنى حمار •

أسرع يحفر بجوار سيقان البوص كمن يحس أنه لم يعد فى العمر بقية وقد تعلقت كل آماله وأحلامه بأطراف أصابعـه • وأخذ يهمس للجذور بكل ما يثقل صـدره وكلما حفر حفرة مد رقبته وأفرغ فيها ما عذبه من أفكار وأحداث ورؤى • وأخذ يتنقل بسرعة ويحفر بجنون وقد ذابت روحه كلمات وأشـعارا يسكبها فى الجذور •• وأخذ يحلم بأول طفل سيأتى الى هـذا المكان ليصنع صفارة من هـذه السيقان المقدسة مؤملا أن تذيع عنه ما أودعها من أحلام رحلته العجيبة •

••••••••••

ظن الجلاد الذى كان يراقبه من بعيد أنه يحفر الأرض محاولا الهرب ، فأسرع اليه وانتهز فرصة استطالة رقبته داخل الحفرة الأخيرة فأهوى بالبلطة فى قوة ..

وتدفق دمه يشخب فى دفقات ملأت الحفرة وأخذت تصعد فى بطء خلال عروق البوص الخضراء فتشيع فيها حمرة وردية .

وعندما رفع الجلاد الرأس المقطوع عاليا تأوهت جذور الشعر الكثيف تحت وطأة أصابعه فصاح منتصرا معلنا انهاء المهمة .. ساعتها لمحت العينان المفتوحتان جوقة من (المغنين الشعبيين) مقبلة عليهم من بعيد فى طريقها للاحتفال بتنصيب السلطان الجديد .. وسمعت الأذنان الداميتان بكل وضوح طلبهم الاذن من الجلاد : بالسماح لهم بالحصول على بعض سيقان البوص الوردى ليصنعوا منها نايات جديدة تليق بحفلة التتويج .

وعندما سمح لهم الجلاد ، خيل اليه أن ابتسامة عريضة ارتسمت على محيا الرأس المقطوع ، الذى كان فى مواجهة وجهه تماما ، وهو يثبته فوق رأس حربته استعدادا لكى يتقدم به الركب الملكى ...

كتبت فى النصف الأول من عام ١٩٧٣
وتمت فى يناير عام ١٩٧٩ القاهرة

اجلسته فوق سرير عشيقها القديم ، واشعلت له غليون والدها وغسلت قدميه بزيت الورد : واحضرت له سمكا وزيتونا واطعمته بيديها . نسى معها معالم ارضه القديمة ، وانمحت ملامح قريته وايام طفولته . واختلطت فى قاع ذاكرته المرهقة كل اسماء بنات الخالة وبنات العم والاخوة ونداءات الأطفال فى ساحة سيدى مجاهد .

صعدت امامه صخور الشواطىء المسننة ، وجذوع الأشجار الهرمة ذات الأشواك ، وسلالم المعابد الحجرية ، وعندما اجلسته تحت صورة العذراء وغنت له ــ وحده . ماتت الى الأبد .. او هكذا خيل اليه ــ صيحات العربات الوحشية فى كل مدن العالم ، وكف الأطفال الجوعى فى عمق القارات الخمس عن الصراخ ، وسقط عرش الشاه والامبراطور والخصى .. ولم تعد اثنيه ترتجف رعبا .. او تسحقها اقدام العسكر المهرولة نحوه فى اعماق الليل .

(اليوم الذى جرت فيه الواقعة)

رسم الغلاف عن لوحة للرسام الاسبانى
ULISES WENSELL

مطابع الأهرام التجارية

الثمن وفى البلاد المغربية والخارج ٥ ل . ل أو ما يعادلها .

قرش جنيه